ISHAYYIQ

LAYALI MILAH

2271
.504645
.356

2271.504645.356
Ishayyiq
Layali milah

DATE	ISSUED TO
OCT 2 2 1965	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 081693457

ليحا اسحيق

ليال مع ملاع

Ishayyiq, Malīḥah

ملیحه اسحیق

احمد زکی ابو شادی
A. Z. Abushady

Layālī milāḥ

ليالي ملاح

شركة فن الطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩

المؤلفـــة

الإهداء

إلى التى سكبت فى روحى عصارة الحيوية فى احتمال أعباء الحياة .

إلى التى أخذت بيدى إلى المسالك المستقيمة فى الحياة ، حيث لا هادٍ ولا دليل .

إلى التى علمتنى أن أجعل العقل رائدى فى كل ما أعمل .

إلى التى أرضعتنى حب الانسانية .

إلى أمى . . .

ملجه

من آهات القصور

[أرفع هذه القصة إلى البائســـات المظلومات اللواتى ضمتهن قصور التعاسة فلعلهن يجدن فيها بعض الترفيه والتسلية ! !]

قال شاعرنا الجواهرى بيض الله وجهه :

وداعاً ما أردت لكم وداعا
ولكن كان لى أمل فضاعا

إى والله . . .

لا أدرى ماالذى دفعنى لتلبيـة دعوة صديقتى « ليلى » لحضور حفلتهـا الميلادية . وقد كنت يومئذ أشعر بتعب شديد وفى أمس الحاجة إلى الـكرى . أهو إلحافها الشديد ؟ أم أن القـــدر خبأ لى ما ليس فى الحسبان ؟ . وعلى ذلك ذهبت والتعب قد أخذ منى مأخذاً . . فألفيت الدار تعج بالآنسات ، وتموج بالسيدات اللاتى يتمنين كل أيامهن أعياد . فتراهن فرحات باسمات ، تداعب إحداهن الأخرى . أما أنا فانزويت كعـادتى فى ركن بعيد عن الضجيج إلتماساً للراحة ، وإذا بى فجأة قبالة وجه جميل جذاب يشع سحراً وألماً فى آن واحد .

(RECAP)
2271
.504645
356

فأسارير محياها ، تخفى ما يكنه قلبها . وحصافة عقلها ، واتزان سيرتها ، جعل وجهها ، كما قلت ، ينبثق فرحاً وألماً فى آن واحد ، فلا يظهر ما يكتم ، ولا يكتم ما يظهر ! . وهى فتاة حلوة التقاطيع . . جذابة الملامح . . بديعة الانسجام . . ممشوقة القامة . . لها وجه أقرب ميلا إلى الأتراك ، تعلوه عينان سوداوان ينفث منهما السحر نفثاً . ترتدى ثوب برد أسود شفاف يكسو جسمها ، ووشاح حالك السواد (جرجيت كويتى) يغطى رأسها ، مما زاد وقارها هيبة وعظمة . فشعرت بدافع داخلى قوى يحفزنى على الاطلاع بما يكنه قلب هذا الملاك ، الذى هبط إلى الأرض فى هيئة بشر ، فتقدمت إليها بوجل وشىء من الحياء والخجل . . والابتسامة تعلو شفتىّ قائلة :

— مساء الخير .

فردت :

— مساء الخير .

— لِمَ لا تشاركين الرفيقات فرحهن وهن محتفلات بعيد ميلاد صديقتك العزيزة « ليلى » ؟ . هل جدّ لك جديد ؟ ولِمَ اتخذت هذا الانزواء مكاناً لك ؟ .

— ماذا يهمك يا آنسة من أمرى ؟

ـ عفواً يا دادة . أرانى متطفلة فى سؤالى هذا . . إلا أنى حدست أن لديك مهمة أو شاغلك شاغل . فقلت عسى ولعل أحل عقدتك ، أو أساعدك فى إنجاز مهمتك .

ـ شكراً . . يا عزيزتى . وآه منك ومن أسئلتك هذه التى قد هيجت ما شاء لها أن تهيج من لواعجى . . قلبى المكلوم وفؤادى المحروم ، وأعادت سجل أيامى الغابرة التى سوّدها القدر فى وجهى ، وضيع أملى ، وخيب رجائى ، وقبر مستقبلى وهو فى مهده ، وعمى بذلك بصيرتى وبصرى ، فقد ولى منالى من حيث لا رجعة ! . . حيث قضاء الله ، وظلمنى الناس ، وظلمت نفسى أنا الأخرى . ولا أدرى يا آنسة ما هى حكمة الرب فى قضيتى ؟

قالت ذلك بلهجة فيها الالتياع . وارتعشت أعصابها ، وتوردت وجنتاها ، وقامت من مقعدها . وأخذت تسير ببطء وخشوع ، فلحقت بها متتبعة خطواتها ، حتى انتهى بنا المطاف إلى غرفة فى الطابق الثانى من الدار ، خالية من المدعوات .. فجلسنا منفردتين . ثم التفتت إلىّ قائلة :

ـ أراك يا عزيزتى تهتمين بأمرى . . فما بالك ؟ .

ـ تعلمين يا سيدتى أن حب الاستطلاع غريزة فى كل إنسان ، وفتاة مثلك ، لا يهمنى أنا وحدى أمرها ، بل يهم

كل إنسان نبيل يحمل بين جنبيه قلباً رقيقاً. ولذا أود أن تقصى علىّ قصتك.. وما هو قضاء الرب وظلم الناس وظلم نفسك؟ وإن وجدت من إفضاء ذلك عسراً، فلا داعى لذلك.

فأردفت قائلة.. وقد طفحت فى عينيها دمعة تترقرق:

— آه يا دادة... أقول: قضى الرب وجعلنى أجحد فضله، وأنكر نعمته، وأشك فى عدله. أنظر ما ذنبى؟ ولماذا ظلمنى القدر.. وابتلانى الرب بهذه النكبة؟ ألم أكن عبدة من عباده وهو بعباده رحيم؟. أو لم أكن بشراً من بشره وهو ببشره رؤوف!!...

يا دادة. إنه ابن عمى وخطيبى وهو الواحد لأهله. أفرغ أبواه كل ما يملكانه من متع الحياة فى سبيل تربيته والمحافظة عليه، وانتظار يوم زفافه، ويوم أن يرزقه الله ذرية تحفظ له النسل.. وإنى.. آه...

إنى الوحيدة لأهلى.. مات أبى وعمرى ستة أعوام، فتبنانى خالى، وصرف علىّ ما صرف. وبعد مضى سنتين وافاه الأجل المحتوم على كل بشر. فتبنانى عمى وهو والد خطيبى، وانتقلت إلى داره وعمرى ثمانى سنوات، وكان ابن عمى يزيدنى ربيعاً واحداً، وكنا بحكم عيشنا وبحكم ظروفنا

نلعب ، وندرس ، ونلهو سوياً . اثنين لا ثالث بيننا . . هو . . وأنا .

وبمرور الأيام ، وتوالى الأشهر والسنين ، توثقت عرى المودة والحب بيننا .

وهنا سادت بيننا فترة صمت طويل . لم نسمع خلالها سوى انفاساً تتردد ، ثم أردفت قائلة :

ـ وهكذا نمى الحب .. كما نميا .. وامتزج بلحمنا ودمنا. أما كيف كنا نقضى أوقات فراغنا ، ويمنى كل منا الآخر بيوم الزواج السعيد . فحدثى عنها ولا حرج ! !

حتى حل ذلك اليوم البهيج يوم أن استلم كل منا شهادته ، وأنهى دراسته ، فقد تخرج ابن عمى طياراً ، وأنا معلمة . . وكانت حفلة بهيجة ضمت الصديقات والأصدقاء . . فأخذوا فى لهو وفرح وسمر حتى الهزيع الأخير من الليل . . وكان عمى يهنىء الحاضرين . وهم بدورهم يهنئونه على نجاح ابنه وابنة أخيه . . والكل يتأملون يوم زفافنا . ولم يمض شهراً واحداً حتى فاتح ابن عمى أباه طالباً الزواج بى . . وكم كانت دهشة عمى وفرحه عظيمين حينما علم بأنى سأكون خطيبة ابنه وشريكة حياته ! وفى التو أحضر « المأذون » وعقد القران فى حفل

ويمنى كل منا الآخر . . بيوم الزواج السعيد

كبير أطبق شهرته الآفاق .. أما كيف قضينا شهر العسل فعند أهل القاهرة الخبر اليقين ! .

وهنا أوقدت سيجارة وراحت تنفث دخانها بأسلوب لا يتصوره إلا الفنيون من شعراء وأدباء وموسيقيين كأنها تخاطب دخان السيجارة بلهجة العتب والحرمان .. وراحت تكمل القصة قائلة :

ـ يا للسنين التى مرت ، فلم تترك لى سوى لوعة ممضة ، ولم تخلف لى سوى وحشة وظلمة أحيا بهما لأموت بين الفينة والفينة ، ما أشبهنى يا صديقتى .. بسائح تاه فى بيداء الحياة المقفرة الجرداء بلا ماء ولا رواء ولا ظل ولا ثمر ! .

وتوالت أيام الفرح ، والبشْر ، والسعادة ، والسرور ، أشهر معدودات .. وذات يوم فاجئنى زوجى بأنه سيوفد فى مهمة إلى لندن .. للتدريب مدة ستة أشهر فقط .. فوخزنى قلبى ، وأحسست حادثاً غريباً يوشك أن يحل ، فقلت له :

ـ كيف تطيق فراقى يا صالح ؟

ـ إنه أمر حكومى لا مناص منه .

ـ وهل ستكتب إلىّ كل يوم رسالة .. أرجوك ياصالح (ثم انفجرت باكية) . وأخذ صالح يخفف من لوعتى ويهدىء من روعى . ثم استطرد قائلا :

— ماذا يحزنك يا عزيزتى . . أتعتقدين أن الرباط الذى يربطنا سيضعف وتنفصم عراه على أثر التباعد . ؟ أنا يا لحاظ ذلك الزوج المخلص الذى يتفانى فى حبك ، أجل يا لحاظ . . علام الخوف ؟ ولماذا البكاء ؟ إن حبنا ممزوج بدماءنا ، مستقر فى أعماق قلوبنا . . من يستطيع أن يفك عرى هذه الرابطة الوثيقة ؟

هذا الحوار يا فتاة الإنسانية هو الذى كان يدور بينى وبين المغفور له زوجى . . ثم قالت :

— آه يا آنسة ، وألف آه . . كم كانت فرحتى عظيمة حين وفى المرحوم بوعده وبرّ بعهده . . فأخذت رسائله تترى علىّ يوم إثر يوم مما خففت علىّ لوعة الفراق وألم البعاد ! ! !

وذات يوم مشؤوم استيقظت مبكرة على أثر رؤية رأيت فيها صالح ، وهو يودعنى الوداع الأخير قائلا : إنى ذاهب بلا رجعة . . فالوداع يا لحاظى ، (المكتوب على الجبين ، لازم تشوفه العين) . . فناديت عمتى . . وما زالت الدموع تترقرق فى مقلتى . . فصحت مذعورة خائفة مرتجفة ، وقصصت عليها الرؤيا . . فخففت من لوعتى ، وبددت من شجونى . . ولم تمض ساعات إلا وقد طرق الباب طارق ، ينعى إلينا زوجى العزيز . فإذا الرؤيا تتحقق . . وإذا به قد ذهب

بلا عودة . . إنه مات ، إنه سقط من طائرته ، وضاعت حتى جثته ، وذوى شبابه ، وذويت أنا الأخرى .

قالت ذلك وأجهشت بالبكاء ، وشاركتها أنا الأخرى بكاءها ، ثم تمالكت أعصابى وكبحت اضطرابى وقلت لها :

ــ يا لحاظ ! . . استغفرى الله واستعينى بالصبر فهذه حكمة الرب . ولا اعتراض على حكمته ! !

وأخذت المنديل وكفكفت دموعها ، وظللت أهدىء من روعها حتى عادت إلى حالتها الطبيعية ، وسألتها زيارتى متى شعرت بضيق . ومنذ تلك اللحظة توثقت الصداقة بيننا . . ثم ودعتها ، وأنا ساخطة على تلبية هذه الدعوة ، ولا أدرى ما الذى دفعنى إلى تلبيتها ؟

هذا سؤال طالما وجهته إلى نفسى فلأشرك معى القارىء العزيز وهو : « على عاتق من يقع ظلم هذه المسكينة ؟ » .

ترى كم من أكواخ ملؤها السعادة ، وكم من قصور ملؤها التعاسة ! ! فيا للسعادة إسماً . . ويا للشقاء فعلا . . .

فى دنيا الخيال

[إلى الطامحين والطامحات . . . لا إلى الطامعين والطامعات]

أكتب ، ولا أدرى ماسيقودنى محور الحياة لأكتب . .

وطالما كانت ولم تزل الحياة مداً وجزراً فأقع بين حيرة من مدها وجزرها . . فطوراً أرتفع وما ارتفاعى إلا مد الحياة . . وطوراً انخفض تبعاً لمشيئة الجزر الذى حدا بى إلى الانخفاض . . والله ما أرانى إلا حائرة مرتبكة . لو كانت الحياة مداً فقط أو جزراً فقط لارتاح من عنائها البشر المساكين ، ولكن الحياة مد وجزر ، فكلما ارتفع الإنسان بمد حياته سواء أكان رفيعاً أو وضيعاً لم يلبث أن تقوده سنن الحياة إلى الجزر فتنخدع نفسه من جراء الهبوط والصعود ، إلى أن يقوده الأجل الذى هو فى انتظاره وانتظار كل واحد منا . . وهكذا يستمر ارتباكى وحيرتى حتى يعودا بى أو أعود بهما إلى طبعى الهادىء الساكن الذى يدفعنى أمام كل أمر من أمور الحياة . . ومهما يكن

أيها القارىء الكريم فلا أريد أن أضيع وقتك بحديث المد والجزر ، فهلم بنا إلى خليج الحياة سواء أكان مد الحياة أقصاه أو جزرها أدناه . . هلم بنا ، ودعنى أحدثك عن رؤيتى وأسبح بين عباب الموج ولا تفق معك إذا ما هززت حبل النجاة إسحبه وانقذنى . يا ويلتـــاه ماذا أرى !

حيوانات عجيبة غريبة ، هنا شجرة الدر ، وهناك شجرة اللؤلؤ ذات العساليج المتدلية ، وذاك نوع خالص من البرلنت لا تشوبه شائبة . وقادنى النسيان حتى سهوت أن أهز الحبل فما كانت من شيمة أخى الإنسان إلا أن يقطع حبل النجاة بيده فعذرته لضعف عقليته ، ولا أدرى هل تعمد قطعه ! أم أكلته المياه المالحة فانقطع ! وطالما كان الشك ملموساً ومحسوساً ، فالعذر مقبول فى كل أمر من أمور الحياة ، وهكذا ظل صاحبى ينتظر وأنا بين الموج .. وما أشد فرحى ،

وأعظم اغتباطى ، حينما رحبت بى الحيوانات العجيبة ، وشاء أحد العرابيد القرنية أن يمتحننى فلتف حول ساعدى الأيمن عقد اللؤلؤ ، فذهلت وتاه عقلى ، وزاغ بصرى ، وإذا بى أقاومه بلطف ، فما كان من العربيد إلا أن مدّ ذيله واستخرج من فروته المشتبكة وثيقة الخلاص فدفعها إلىّ وهو يقول :

— هذه وثيقة تخلصك من شر الحياة .

فعجبت لقوله ، وسألته وأنا خائفة :

— أللحياة شر يا سلطان العرابيد ؟

— لِمَ لا يا فتاة الانسانية ! !

— الله أكبر ... من أين جئتنى بهذا الاسم يا أيها السلطان ؟

— سيماهم على وجوههم .

فشكرته . . وقويت عزيمتى ، وأردفت قائلة :

— إن الذى يُغدَق بخير الحياة . . صدقنى . . لا يبتلى بشرها حتى لو خانته الأمانى !

وما أن سمع قولى هذا العربيد المسائى حتى التف فى حركة لولبية جانبية وأخرج درة سألته ما شأنها :

— إنها تعينك على الحياة (وكأنه يريد أن يمتحننى أطامعة ؟ أم طائحة) .

ـ شكراً .. أكرر شكرى لك يا سيدى .. إن بركتك ووثيقتك تكفيانى .. فلا حاجة لى بها .

وما أن سمع قولى إلا وباركنى وحملنى على ظهره ليخرجنى إلى سطح البسيطة .. فوصلت بسلام .. واختفى !

وكان قلبى لا يزال يخفق بشدة لما نالنى من ذعر فبحت لأخى الانسان بما اعترانى فى مد الحياة .. وحدثته عن الهدية التى قدمها إلىّ سلطان العرابيد .. فلامنى على رفض الدرة ورجانى أن أترقبه ليغوص ثانية بدوره عسى أن يملأ محفظته التى أعدها لهذا الشأن حتى يصبح مليونير العالم . فرجوته أن يكف عن طمع الإنسان الذى يقوده لا محالة إلى التهلكة .. فزجرنى ، وهبط ، لا إلى خليج الحياة ، بل إلى بحرها وسلمنى حبل النجاة ! ثم مضت ساعة وأعقبتها ساعات ، وانتظرته حتى عيلَ صبرى فهززت الحبل .. فإذا أمامى ذلك العربيد . وبعد أن حييته سألته عن أخى الإنسان فهز رأسه ساخراً :

ـ طمعه قتله ! فقدمت له عضة الندم !

ورجوت من العربيد أن يعيد جثته فأبى زاعماً أن الحيوانات الغريبة العجيبة قد أكلته ، وقدّم لى نفس الدرة التى رجانى

قبولها للمرة الثانية . . فشكرته بعد الرفض . . وودعته ، وأنا أعدو هاربة من دنيا الطمع . فانتبهت فإذا الرؤية خيال .

اطمح . . . ولا تطمع . .

فطمحك حياتك ، وطمعك قاتلك . .

اللهم ابعدنا عن دنيا الطمع . .

وقرّبنا أكثر إلى دنيا الطموح .

ففيهـــا السلام ، وفيها الوئام . . وفيها . . وحدث ولا حرج . .

افضيلة أم رذيلة ؟

الحياة تافهة ، وبالرغم من تفاهتها تضم بين طياتها من العبر والعظات ما لو تتبعناها فى السير ، لما رأينا شيئاً يستوجب أن يسموه بالرذيلة، ولا شيئاً آخر يسمونه بالفضيلة!

فان هذه المقاييس العرفية التى اخترعتها الأيام بالنسبة للظروف ستنعدم حتما فيما لو كان الناس من معدن واحد ولكنهم كما قيل معادن . . ومن المعادن ما يعلوه الصدأ ، ومنها ما لا يجد الصدأ إلى نفسه سبيلا .

ألا ما أسعد من لا يجد الصداً سبيله إلى نفسه ، وما أشقى من يجد إلى نفسه سبيلا !

لا أريد أيها القارىء الكريم ، أن أطيل عليك الوقت فى هذا البحث الممل .. فإنى إن تعمقت فيه ألج باباً من أبواب الفلسفة التى يزعجنى جداً الولوج فيها .

ويزعجنى أكثر أن أكون سبباً فى إزعاجك معى . .

فلنأخذ فى الخوض فى موضوعنا رأساً ، فلعله يريح أعصابنا المضطربة فى مثل هذا اليوم العصيب الذى تضعف فيه الصداقة وتخور العزيمة ، وتتزعزع الثقة فى أناس جهلتهم فعرفتهم . وما أراك بمعرفتك إلا جاهلا طوراً لحسن نيتك وعارفاً أخرى لتجربتك ، وكما قيل : الناس صناديق مقفلة مفاتيحها التجارب .

تلك يا أخى شيمة فتاة صادفتها ذات مرة فى الحياة . فهى والحق غريبة من غرائب الزمن ، وعجيبة من عجائب الأيام !. أحتار لا أدرى : أسميها (فضيلة) أم رذيلة ؟ فإذا أردت تسميتها فضيلة لا يجد الخطأ سبيلا إلى تسميتك . . وهكذا الحال إن أردت تسميتها رذيلة . وحين تلوذ إلى ذات نفسك وتضع يدك على رأسك مفكراً لحظة فى هذين الأمرين لاستبدت بك الحيرة ، واستهدفت لشتى أنواع القلق والشك فى أمر هذه الفتاة !

لا تتسرع يا عزيزى القارىء . . فعهدى بك كعهدى بى ، ذو طبع هادىء لا بارد . . ومن كان كذلك ، فالمفروض فيه التبصر ولو قليلا فى الأمور كبيرها وصغيرها . حيث الشك إذا أخذ بتلابيب الفكر فإنى أعتقد أنه يؤذى! وبينى وبين فتاتى هذه بحر خضم من الشكوك . . ولا أدرى أيضاً ما هو السبب فى أن يحاول الإنسان قتل أخيه الانسان . . حتى لو كان هذا القتل حقاً من حقوقه ، أو باطلا يتشبث به ، إذ القائم بعملية القتل يعد مجرماً أمام القانون الانسانى (الضمير) ، قبل أن يكون مجرماً أمام قوانين الناس ! .

أما . . جنايات الأخلاق . . فصدقنى . . طلسم غامض ، احتار فى فك رموزه أطباء الأخلاق ! فكيف أستطيع أنا فك رموزه . . لا أدرى ! .

وسواء أدريت أم لا . فنحن الجنس اللطيف ، لنا من تصرفاتنا فى الحياة حقيقة ما يجعلنا ، وا أسفاه ، هدفاً للقيل والقال . . وخصوصا السذج فى يوم جفت فيه مياه العقول ، بعد أن كانت رطبة . . هكذا حدثتنى إحدى المعجبات . . وجاءتنى بأمثال عن تصرفات « فلانة وفلانة » ولما لم تجد أذناً صاغية انصرفت إلى حديث . . هو نفس الحديث الذى بقيت فيه منزوية أفكر فى فتاة رجونى تسميتها فى صفة من تلك

الصفتين ، وأخذت المعجبة تزدرى الناس وتحتقر الصداقة والأخوة . فلما نبهتها إلى خطئها حدثتنى ، ليتها ما حدثتنى . .

ماذا أقول فى أناس صداقتهم رياء ، وودهم وأخاؤهم مخاتلة ؟ وماذا عسانى أن أقول فى أصدقاء يضاحكوننى ، وضميرى متقمطر من العبوس ! كبرياؤهم دون معرفة ! فى صدورهم تعصب ولا إيمان . . قلت ما قصتك يا عزيزتى ؟ فأجابت وهى تبتسم من غيرة الجنس اللطيف :

— هى فتاة تعرفت عليها وأحببتها وتبادلت وإياها الصور ، وشاء الله أن يخطبها واحد من الناس ، ثم انصرف عنها لعجرفة أخلاقها ، علاوة على دمامتها ، وخطبنى بالذات ، أتدرين ما فعلت ؟ . طبعا لا .

إنها طبعت نسخا من صورتى ، ووزعتها على عدد من الطلاب وراحت تطعننى بأنواع التهم ، حتى استبدت بها النقمة إلى أن استطاعت أن تفسخ خطوبتى التى كانت أقرب من الحاجب إلى العين . . خبرينى ماذا تريدننى أن أسميها : فضيلة أم رذيلة ؟ ! فأجبتها بكل هدوء وسكينة :

— هذا نموذج واحد للصداقة المزيفة . . والأخوة الكاذبة .. أما بقية النماذج فسلى عنها الحكيم سليمان ليكرر قوله :

إن من مجد الإنسان أن يمر بالإساءة مرّ الكرام .

فهل أدركت مجدك يا معجبة ؟ !

من صور الخيانة

لا أدرى ما الذى يجمعنى بأناس لهم من تجارب الحياة ما يساعد على نضوج العقل قبل أوانه . . . وإليك القصة :

هذه سيدة مهذبة لها مكانتها فى المجمع اللغوى أكثر من النسوى ، فإذا حدثتك بدت حلاوة حديثها خالية من السكر ! يبدو حديثها متقطعاً تعقبه فترات ساكنة . . لاأدرى أتشترى الكلام شأن الدلال اللبق لتبيعه بسعر أغلى ؟ أم هو عصر (المودة) الذى تتبجح به بعض الناعسات . . قصد الدلال والجاذبية .

لا لشىء تصبو ، بل لشىء تعتقده من باب العظمة ، والعياذ بالله من العظمة . ومهما يكن . . فمن واجبى أن أصغى لحديثها ، مراعاة للأدب ، ومجاملة لحقوق التلمذة ، التى جمعتنى وإياها سنين مضت .

وما أن جلست حتى فتحت حقيبتها وأشعلت سيكارتها ، وبدأت تنفث دخانها بآهة تتبع آهة . . فتملكنى الشرور ، فشعرت أن هناك بركانا قد انفجر ، وهذه بوادر شظاياه . . فكيف النجاة ! ! وهو قريب منى ؟ ثم انتبهت لاعنة خيالى ،

وتصوراتى ، فاذا البركان هو بركان حديث بدأت شظاياه تتعالى رويداً رويداً فأجبتها :

— مهلا يا عزيزتى ، دعينى أقدم لك من هذه السجاير .

فردت بكبرياء :

— شكراً . . هذى أحسن .

وبعد أن دار الحديث بيننا على أحدث موديل ، وأجمل صورة ، شعرت بملها من هذا الموضوع . . فتماديت به علنى أهدىء أنفاسها الحارة ، وأروض من اضطرابها فقاطعتنى :

— خذى يا فتاة الانسانية عبراً وعظات .

— دخيلك ! كفى عبراً وعظات . فما أقصر العمر لنضيعه فى قول عديم الرونق والبهاء أيضا . . قالت فلانة ، وقال فلان . . أواه من جو الثرثرة .

فردت وهى ترمقنى بنظرة فهمت معناها :

— يا لطبعك ! تمزحين فى وقت الجد ، وتجدين فى وقت المزاح ! .

فضحكت ضحكة عالية واعتذرت . . فردت :

— كفى يا آنستى . . كفى إننى على أحر من الجمر .

— ويحك ! ماذا تقولين ؟ .

ـ أسمعت عن فلانة ؟

ـ لا يا أختاه . . لا زيداً ولا عمرا .

وهنا انتفضت وكأنها أفاقت على أثر حلم مزعج . . ولم تلبث أن أعقبت سيكارتها بأخرى ، وراحت تبللها من قدح ماء كان بجوارها ، وابتدأت تبعث من حرقتها ما يجذب نياط القلوب .

فقلت :

ـ هونى . . هونى . . حرام والله على هذه الأنفاس الحارة تتقاذفك يميناً وشمالا . . ما الذى حدث ؟

فردت وهى تضطرب بين الفينة والفينة :

ـ يا للخيانة !

فقادنى حب الاستطلاع الذى هو غريزة كل بشر إلى اقتفاء ما يعقب كلمتها فقلت :

ـ إذا رأيت صعوبة فى الإفضاء فكفى . . واقلبى صفحة كما يقول المثل العراقى المشهور . . وحدثينى عن خدمة إنسانية ، أو تضحية بعمل خيرى .

ـ دعينا من الإنسان والانسانية يا فتاتى واسمعى :

هناك فى الشارع . . . قصر فخم ضخم تسكنه عائلة غنية لها نوع خاص من تصرفات الحياة أكثر ملائمة للجو الغربى

منه إلى الشرق . . تتكوّن من أفراد ، يربو عددهم على الستة أو السبعة لا أدرى بالضبط .

وقد تعوّد أحد الأصدقاء الذين تجمعهم والزوج أواصر الصداقة أن يتردد باسم الأخوة بزيارته المتقطعة إلى هذا القصر !

وهنا استوعبت زائرتى زفيراً عميقا كما يفعل المغنى لأداء لحن طويل يقتضيه الفن ويتطلبه الواجب ، فأسعفتها بقدح من الماء البارد ، وراحت تتابع حديثها :

— أما الزوجة فكانت من اللاتى يحسن القيام برئاسة صالون لا إدارته ، ولكن الرجل أخذته سيرة الإعجاب بإخلاص زوجه ، واعتقد بوفائها حتى لو أطبقت السماء على الأرض .

وماذا يتمنى الرجل . إذا منحته الحياة زوجة تحبه ويحبها !

وسرعان مادار رقاص الزمن فاختل توازنه ، فأبى إلا أن يبرهن على ماهية الزوجة . وكان الزوج إذا خرج فى الصباح لايعود إلى البيت إلا فى الوقت الذى تعوده وقت الظهر . . وحدث سهواً أن قفل راجعاً إلى بيته بطريق الصدف . . ويا للصدف من خير وشر ! . . فهى إن شئت نعمة ، وإن شئت نقمة . . وما أن وصل فإذا به أمام مشهد مريع . .

يقع أمام عينيه .. ألا وهو ، زوجه أم أطفاله بين أحضان صديقه الذى أودعه حسن الظن !!

وهنا استعادت أنفاسها ريثما تستريح .. وشرعت تهز إحدى رجليها ، ثم ترفع دخان سيكارتها بشكل تمثيلى .. كأنها تخاطب حاكما ترجوه أن يتولى عقاب هذه الزوجة أو الصديق .

ثم أردفت قائلة :

— ولا أدرى كيف استطاع هذا الرجل آنئذ أن يكبح اضطرابه .. ويقاوم أعصابه ، ويهدىء من دمه الهائج المغلى ، فهز رأسه لهذا المعروف الانسانى ، وهو يتمتم :

— هنيئاً ... طاب وقتكما ..

وجلس الرجل فى غرفة الاستراحة . يقلب كتاب (خبايا الصدور للسباعى) . وهو يقول :

— وددتك يا « يوسف السباعى » لو كنت شاهد عيان .

ولا أدرى لماذا وقع اختيار الزوج على شاهد كيوسف السباعى !!

أما الصديق فلوى على وجهه ، وجثت الزوجة تحت قدميه تسأله الغفران وأى غفران .؟ فأجابها وهو يتلعثم :

— خائنتى المهذبة .. لنفتخر بحسبك الغالى .. ونسبك الرفيع .. فوالله لقد كنت مثالا لطبقة (الهاى لايف) .

إيه .. غرك بريقها وخدعتك زخارف بيئتها . فلا صديق يؤتمن ، ولا زوجة تعتبر . لك أمرك وبيتك وحرية تصرفك . أما مسؤولية شرفك فلتكن نخراً لذويك ، واعترافاً بفعلتك . . وذى وثيقة الخيانة أقدمها كهدية بسيطة ، بسيطة جداً ، لسالف أعمالك .

ولا أدرى ما حلّ بهما بعدئذ ، فقد انقطعت زيارة زوجى عنها .

فأجبتها :

ــ ليست الخيانة يا سيدتى بالحسب العالى أو النسب الوضيع . فالخائن خائن سواء أكان رفيعاً أم وضيعاً .

فردت على الفور :

ــ أنا لا ألوم الزوجة الخائنة ، لأنها عنى غريبة ، بل ألوم زوجى الذى خان صديقه وزميل طفولته !

ــ إنك على حق !

والآن وبعد أن انتهيت من سرد حكايتك . . اسمحى لى يا ثائرة بسؤال خفيف . ورجائى إليك . أن تهدئى ولو شيئاً قليلا من أعصابك المضطربة . فلست زوجك !

ضحكت واستمرت فى ضحكها . فتأكدت ساعتئذ من هدوءها . . فقلت لها :

— لقد ظهر لى يا عزيزتى أنك تشكين حبك لزوجك وغيرتك عليه أكثر من خيانته ، وإن كنت المحقة فى ادعائك .

إن المرأة مهما بلغ بها التهذيب العالى . . من ذوق ورونق ، فلن تنسى غيرتها على زوج يجمعها وإياه الحب الصادق ، والإخلاص المتين . . خصوصاً إذا كان عهدهما بالزواج حديثاً ! . أجيبينى . . أليس كذلك ؟

— عظيم ، رائع . . يعجبنى أن أسجل أقوالك بماء الذهب . . . زيدينى . . .

— إنى فى انتظار زوجة ثانية يخونها زوجك . . لأكتب نموذجاً ثانياً من صور الخيانة .

وهنا تركتنى . . فاعتذرت ، وانصرفت .

أريد أن أسأل الآن حاكم الأخلاق لاحاكم المواد والقوانين ، لأن موضوعى خيالى ، وإن كان فيه من لمس الحقائق شيئاً .

أى نص يترتب عليه تنفيذه فيما لو كان الزوج هو الخائن؟ علماً بأن الصديق والزوج قد رضعا من ثدى واحد ؟

سلوا المعرى !

سـلوه :

هل الليل الباكى أضناه ، أم ضوء النهار أشقاه ؟

أآلام الحياة أطربته ، أم مكابدة الحرمان أشجته ؟

أخطوب الأيام فلسفته ، أم نكبات الدهر عظمته ؟

أذل العيش خفضه ، أم عز العيش رفعه ؟

أحكم القدر هزّه ، أم عناء المستقر عاقه ؟

أدجلة الهدار أسكره ، أم نسيم الزوراء أثمله ؟

أآمن فأحسن ، أم جحد فسجن ؟

سلوه : أعانى الشقاء فنطق بالنقمة ، أم رفل بأثواب الهناء فازدهى بالنعمة ؟

سلوه : بربكم ، لمن الدنيا ، وعلام التجبر ، ألابن الثرى ، أم لابن الثريا ، وقد ساوت فلسفته الثرى والثريا ؟

سلوه : أبى من خلقه وطباعه ، أم بى من حيرته ونظرته ؟

ولم أنته من تخيلاتى هذه حتى رأيت المعرى أمامى فعاتبته وقد اغرورقت عينى بالدموع :

— يحزننى يا رهين المحبسين أن تقسو علىّ إلى هذا الحد

قدمت عينيّ فرفضتهما شاكراً ، وقد حزّ فى نفسى جهل الناس مكانتك فعاتبتنى قائلا « مالك يافتاة الإنسانية والناس ، إننى بنت الصدف ولا ميعاد للصدف فهل تعتقد غير ذلك ؟ وكيف ومتى ؟

فهز رأسه وقال :

— عزيزتى ، كونى حيث أنت ، ولا تبالى ، أرضى الناس عنك أم غضبوا لأنك بنت الصدف .

فأجبته وأنا أتكلف الابتسام :

— أتعنى أن أكون مثلك يا أستاذى العظيم ، تسامح من يتطاول عليـــك ، وتعفو عمن يسىء إليك باسم الفلسفة والأدب والنقد .

فضحك المعرى ضحكة عالية رجت العالم الأدبى والفلسفى وقال :

— لم أكن أعتقد أنك على هذا القدر من الذكاء ، ذلك ما أعنيه بالضبط يا فتاتى ، همستك بين بين ، فلا هى موجعة لتبكينى ، ولا هى نفحة أريحة لتسرنى .

فأجبته بنشوة : لله درك يا سيد العقلاء ، ياحكيم الحكماء ، أتريدنى الإفصاح أكثر من هذا . . دعنى أسألك ، علنى أصل إلى قرار .

— لِم بالغ الخالق سبحانه وتعالى ، فى زخرفة طباعك ، وأبدع جمال خلقك وجعلك آية من آياته البالغة ؟ ألخيرك أم لشرك ؟ ألسعادتك أم لشقائك ؟

— لست أدرى . . بل الأحرى أن تبقى على جهلك ، فالجهل أحياناً نعمة سابغة .

— آمنت بعظمتك ، وتوثقت بسداد رأيك يا أستاذى ، لولاك ولولا عشرات من الرجال فقط ظهروا قبلك وبعدك لعم الأرض الفساد ، ولأطبقت السماء على الأرض من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

— والآن حان وقت صلاتى . فاسمحى لى أن أغيب عنك لأداء فريضتى . . ذلك هو عظيم يا فتاتى من يشغل بال الناس ويصرفهم عن نفسهم .

قال ذلك وصافحنى مودعاً .

رحم الله امرىء أفادنا حياً وميتاً .

صوت حوّاء

[الى زكي مبارك]

لقد مضى وقت على ماجرى بينك وبين المرأة فيما كتبت عنها وما وجهت إليها من إهانة وتحقير ، وانقطعت عن التحدث عن المرأة والاستهانة بها وامتهانها ، فهلا تزال تحمل العداوة والبغضاء لها ؟ لست أدرى ، فلعلك باق على ما كنت عليه ولم تغير من الأمر شيئاً .

لقد دارت بخاطرى ـ أيها الدكتور ـ كلمة أردت توجيهها إليك ، لتجيبنى ، واقعياً صادقاً ، والمعروف أنك أديب حائز لشهادة الدكتوراه ، أجل لتجيبنى بصراحة دافعها الوجدان لا التزلف والانحراف ، ولا الاتصاف بعقلية جافة قوامها العناد ، ونبراسها العداء ، وغايتها تفضيل جنس على آخر ، فإنى ـ يا أستاذ ـ مهما أجهدت الفكر وركنت إلى الكلام المنمق فوضعت الأمور فى نصابها ، لم أستطع تغيير ما نلمسه فيك من التعجرف والخشونة ضد الجنس اللطيف ، فلا داعى لدكتور مثلك أن يتوصل إلى الشهرة والمجد عن هذا الطريق وهذا السبيل ، ولا دافع لأديب مثلك أن يضيع

سمعته فى هذا العداء الشخصى الذى لايقوم على أساس من العلم أو نصيب من الواقع .

إن الإنسان ، لم يصل إلى ما هو عليه الآن فى طفرة واحدة ، إنما هو تطور حتمى ، حصلت فيه تغييرات جوهرية كثيرة ، فلابد لك من أن ترضخ للأمر الواقع ، فتبدد عنك هذه الأفكار والآراء التى لا تقوم على شىء ، فلا حاجة إلى أن تطعن فى الجنس اللطيف أو يطعن هو فيك ، على قياس أن الناس سواء . . .

لقد قال عميد الأدب العربى فى هذا الجيل الدكتور طه حسين بك :

« صدقنى أن نفوس الناس معادن ، ومن المعادن مايعلوه الصدأ ومنها ما لا يجد الصدأ إليه سبيلا » . لقد كان عميد الأدب العربى محقاً كل الحق ، فيما يقول ، فلم يقس الناس بمقياسك الضيق ولم يزنهم بميزانك المنحرف . ألا فما أشقى من يعلو نفسه الصدأ ، وما أسعد من لا يجد الصدأ إلى نفسه سبيلا . .

فاقلع عن هذه الآراء الخاطئة ، واعلم بأن المرأة هى نصف الرجل وشريكته فى الحياة ، وهى بالتالى أمك وأختك وزوجتك . .

فتاة الانسانية

حدثتني فتاة ذات مرة قالت :

— اعتدت أن أراه في طريق ذهاباً وإياباً ، ولا أدري ما الذي شخص بصري فيه ، هل هو منظره المؤلم ؟ أم مرآه الحزين ؟ أم كلماته التي اتخذ أنينها سلوى ؟ أم ماذا ؟ . وكنت كلما رأيته ازددت نحوه شفقة وحناناً . . أما لماذا ، فذلك ما لست أدريه . . بأن مرت أيام . . وأعقبتها أسابيع . . وكلما هممت أن أوجه إليه كلمة أخشى الفشل . . هل هو فقير ، شأنه شأن أمثاله الفقراء الذين اتخذوا طريق الله بيتهم وملجأهم ؟ أم هو مسكين لقي من جور الدهر ما ناء بحمله ؟

وأخيراً صممت على أن أفيق مبكرة . . لعلّي أجد ما يدلني على سيمائه . . فاقتربت نحوه قائلة :

— عم صباحاً ياسيدي . . مم تشكو ؟ وهل في استطاعتي أن أخفف عنك ما تعانيه ؟

فصوّب بصره نحوي في شيء من الاستفسار والازدراء ، وأجاب رداً على تحيتي :

ـ وماذا يعنيك من أمرى يا فتاتى، وأنا مريض ؟!

ـ إذا كنت مريضاً يا سيدى ، فإن حالتك هـــذه تهمنى وتهم كل إنسان بالمعنى الكامل .

وكأن كلماتى هـذه أثرت فيه ، فرد علىّ بدون شعور قائلا :

ـ اتركينى يا ابنتاه .. إنى فريسة فقر دائم وعذاب مستمر .

ـ عفواً يا شيخ .. ظننت أن فى استطاعتى أن أرفه عنك ، ألا تستطيع القيام والسير معى ؟ .

وأخذ الرجل يبكى ، كاشفاً رأسه ، داعياً المولى أن يكثر من أمثالى .

ثم قال :

ـ لا أطيق المشى ، إن البرد قارس . .

فتقدمت نحوه فى لطف وحنان ، وقلت له :

— هاتنى يدك .. وسر معى .

وأخذنا نسير وئيداً .. وكان طريق الإنسانية (المستشفى) خالياً ، إلا القليل من المارة ، وحين وصلت الدائرة (المستشفى) ناديت على الخادم :

— ياهذا ! أدخل هذا المسكين وأجلسه على مقعد قريباً من النار ، فانه لا يحتمل البرد .

— إلام ترثى يا آنستى لهذه الحالات ، فدعيه وشأنه كالمرضى الآخرين .

— هل أنت معتوه ؟ .. أليس هذا الرجل بشراً مثلنا .. ألا تخاف تقلب الدهر فتضحى شبيهاً به .. مساكين هؤلاء الناس .. كم هم قساة حتى على إخوانهم البشر ؟ .

فأطرب حديثى الخادم وراح يهتم بخدمة هذا المسكين .. وبعد أن استراح قليلا وانتهيت من ارتداء ثياب الإنسانية ناولته شيئاً من الطعام ، وما أن انتهى حتى أخذ يعزف بكلماته على قيثارة دون أوتار :

— أنا يا فتاتى من أولئك الذين كانت لهم مكانة مرموقة بعض الشىء .. طوّحنى الدهر لجرمى الذى اقترفته .. كانت زوجتى امرأة صالحة أنجبت لى فتاة اسمها (خلود) وفتى يدعى (انتصار) وقد رافقنى الحظ بادىء الأمر فاشتغلت وربحت ،

ولكنه سرعان ما تخلى عنى ، لقد استويت أول الأمر فى الطريق القويم ولكن الإنسان ميّال إلى الشر بطبيعته .. فأخذت أدنو منه رويداً رويداً .. آه ! .. مسكينة زوجتى .. لقد حاولت أن تصلح شيئاً من اعوجاجى فلم تفلح .. سئمت العيش معى ، وملّت الحيـــاة بجانبى ، وبعد لأى صممت على هجرى نهائياً حتى لو كلفها ذلك ترك الحياة . طلبت منى أن أترك الميسر ، فازددت شوقاً إليـه .. وسألتنى أن أترك الخمر فتلهفت عليها .

(ووضع المسكين يده على رأسه ليضبط أعصابه كمن يحاول استعراض شريط سينمائى) .

وأخيراً طردت من دارى ، وفارقت زوجى وأولادى .. فقادنى طيش الشباب إلى البذخ المتزايد .. وأخذت حالتى المالية فى التدهور يوماً إثر يوم .. ونال السهر منى .. فهزل جسمى ، وانحرفت صحتى ، ولعـدم اهتمامى بالوظيفة قدمت استقالتى منها .. وهكذا حرمت من سبل العيش الهنىّ .. مسكينة زوجتى .. حاولت إرجاعى فلم أعرها اهتماما ، ولم تغير عودتى إلى دارى شيئاً من حالتى .. فازددت سوءاً على سوء .

قال ذلك وتأوّه آهة كاد ينخلع معها قلبه لاعناً الشيطان الذى توغل فى جنة حياته فحوّلها صحراء جرداء جدباء مقفرة

وهكذا أصبحت يا فتاتى غصناً عبثت به الرياح فمال إلى الأرض كل الميل لتطؤه أقدام المارة !

وبين هذا الحديث المستمر مدّ يده إلى جيبه وأخرج منه محفظة أرانى فيها صورة لابنته خلود .

أجل .. إنها .. إنها صديقتى .. عرفتها .. وكانت نعم الصديقات .. تلك التى امتازت بجمال تعجز فصاحة سحبان عن إعطائه حقه من البلاغة والوصف .. وهذا ما دعا تلميذات المدرسة ومعلماتها وضمنهن المديرة طبعاً إلى أن يتهامسن كلما وقعت أعينهن عليها فى كل مناسبة .

نعم هى صديقتى التى جالستنى كثيراً .. وحكت لى قصتها مع والدها ، ولقد أنهت دراستها بشق النفس ، وأخذت تزاول مهنة التدريس فى إحدى الألوية .. ولكننى تجاهلت وأخفيت كل معرفتى بها! .. وأخذت أزداد حناناً واحتراماً للرجل فهو والد زميلتى .

قلت له :

ـ أبتى ! أتدخل إحـــدى الردهات فى المستشفى الإنسانى ؟ .

ـ أتعدينى يا ابنتى بالمساعدة ؟ (وكانت ملامحه ترشدنى إلى أنه يشكو ألماً ممضاً فى أحشائه) .

ـ لِمَ لا .. وحالتك هذه تستوجب رأفة كل إنسان حتى من تخلى عنه الضمير الحى !

فهز رأسه إيجاباً كمن تعذر عليه أن يجد الرد اللائق لكلماتى . . وأدخلته بأمر الطبيب المسؤول إلى أحد الأجنحة ، وبعد تقديم شكرى للطبيب أودعته تحت رعاية (الأخت) المسؤولة وانصرفت .

وهكذا استمرت فتاة الإنسانية تحدثنى ، قالت :

ـ لم أر بدأ من مراسلة صديقتى المعلمة (خلود) ، وإن مضت مدة ليست بالقصيرة على انقطاع الصلة بيننا . . وأخذت الصداقة بينى وبينها تقوى من جديد ، وكلما اقتربت منها ، دنا أبوها من الموت شيئاً فشيئاً ، ولا تسل عن فرحى وابتهاجى حين جاءت الفتاة وأهلها إلى بغداد فرحبت بهم جميعاً . . وأخيراً اعتزمنا زيارة المستشفى الانسانى ، وأخذنا فى السير حتى وصلنا سرير والدها ، فبادرته بالسؤال التالى :

ـ كيف صحتك يا والدى ؟

ـ مشرف على الموت يا فتاتى . . (وهنا أخذ الأهل يتهامسون باللغة التركية) .

ـ لا .. أبداً إنك فى حالة جيدة ، إن شاء الله تفاءل بالخير .

— ماذا تقولين ؟ فى حالة جيدة ! (فأخذ يضحك وهو يهم أن يترك سريره) فأسندته إلى صدرى كما علمتنى مهنة الانسانية وأتقنتها . . أما ضحكته فما كانت إلا استهزاء بنواميس الحياة ! . وشخص بصره صوب الجماعة . . وبنظرة الحياة الأخيرة التى هى قريبة من باب الموت تأوه قائلا :

— لو أرى زوجتى . . أطفالى . . (صعقت الزوجة نائحة ، وأعقبتها فتاتها . . وابنها . . إنه . . إنه والدكم !) .

الزوجة — كم حاولت إصلاحك يا أبا خلود (بلين) وكم . . وكم . .

ثم ارتمى هؤلاء المساكين الثلاثة على ذلك السرير الذى وضع فوقه هيكل عظمى لم تمهله الحياة إلا دقائق معدودات .

وبعد أن تمت مراسيم الدفن على حساب أهله ، واسيتهم فى مصابهم الأليم ، ورجوتهم أن يستغفروا الله له .

وما أن انتهت الفتاة من قصتها حتى شكرتها على حسن صنيعها . . حقاً إنها فى طليعة الممرضات . . لا بل فى طليعة الفتيات لما امتازت به من روح طيبة . . أكثر الله من أمثالها لخدمة الانسانية .

وثبة الشباب الجبّارة

هى وثبة أثارت كامن آلامى ، وبعثت مرير شجونى . فلله مافى هذه الأيام من عظة وذكرى ، ولله ماتبعث فى النفس من عظة وعبرة.. إنها لأيام الإنسانية المكافحة فى سبيل الحق والحرية ، إنها لأيام الأخوة والتآلف والتآزر والتكاتف بين الجميع ، ونبذ الحزازات والاختلافات التى يروّجها المشاغبون والدساسون وراء ظهورنا ، فقد أثبتت الحوادث الأخيرة ، وأقر الزمن ، بأن شبابنا الجبار على اختلاف أديانه هو النبراس الذى نستضىء به فى ظلمات الخطوب المدلهمة ، وهم دائماً أبداً المثل العليا فى مقاومة الخطوب وتحمل الشدائد غير هيابين ولا وجلين ، يقارعون الدهر وهم كالطود الأشم ، فلقد عركوا تقلبات الزمان ، عجموا عوده ، وأثبتوا للعالم أجمع ، أن وثبتهم جبارة حقاً ، وأنهم عظيمون حقاً لأنهم لم يسألوا وطنهم فى حياتهم ثواباً أو أجراً ، فالنضال القومى الخالد الذى قاموا به ، والذى طرزت حواشيه بدمائهم الزكية ، والذى ستكتب سطوره فى صفحات التاريخ بمداد

الفخر ، والتضحية العربية الحقة ، يثير فى نفوسنا ويرف رفيف النسيم العذب على قلوبنا ، فيوقظ فيها النخوة القومية وحمية الوطن ، ويوحى إلينا بأن شبابنا الذين أوقفوا نفوسهم على خدمة الوطن لا يزالون على ما عاهدوا الله عليه مقيمين ولأمانة البلاد المقدسة مؤدين .

وليت شعرى أيها القارىء العزيز .. ماذا سيسطر التاريخ .. وبماذا ستنطق الأجيال القادمة عندما تذكر واقعة الجسر ، أو معركة المستشفى ، فإن الكتب السماوية والسنن الشرعية حافلة بالعطف والرحمة بالأطفال والنساء والشباب العزل ، فمنذ أن وجد الدين وجدت معه الرحمة والشفقة .. فهما كانا درعاً حصيناً ، وسلاحاً قوياً ، حتى عند الأنبياء ، ولقد أوصى العهد القديم فى الاصحاح العشرين منذ خمسة وثلاثين قرناً بلسان نبى بنو إسرائيل موسى عليه السلام بالنساء والأطفال ، وحتى البهائم ، وكل ما فى المدينة التى تؤخذ غنيمة من الفاتحين ، وحذرهم من إساءة هذه الغنيمة التى تقع فى أيديهم ، وإن الدين الإسلامى الحنيف الذى جاء بعده كان أكثر حرصاً وأشد توصية برعاية الضعفاء والأطفال والنساء . وختاماً لكلمتى القصيرة هذه أقول : طيب الله ثراكم ، وعطر مثواكم أيها الشهداء ، فقد سرت وراءكم ، وترحمت لكم بدموع غزيرة ،

وبكيت على شبابكم . . ولكنى تمنيت لو كنت بين الذين حملوكم على مناكبهم ، حتى أرى ولو فى لحظات مجدكم العظيم الذى سوف لا يبلى . وحتى أسمع ساعة عودتكم إلى الأرض ثانية صدى نفوسكم الرفيعة التى أرخصتموها فى سبيل الوطن . . تلك النفوس الكبيرة التى ستبنى بغداد فى حاضرها الجديد مابنته بغداد فى ماضيها البعيد . . وما ذلك اليوم ببعيد .

ذكي محروم .. وغبي متخوم

أيهما أجدر بنعم الحياة وملذاتها .. هل هو الأديب الموهوب ؟ .. أم الغبي المحظوظ ؟ .

هذا سؤال طالما وجهته إلى نفسي في ماضي الأيام ، وكان عقلي يجيبني في كل مرة بأن السعادة للموهوبين . لأنهم أعرف من سواهم بأسرار الحياة وأكثرهم إلماماً بمقاييسها .. فهم على ذلك أجدر بنعيمها وملذاتها . ! ولكن . هل صدق

العقل فى مقاله ؟ وهل برهنت الأيام على صحة قياسه ؟ ! . كلا لقد كذبت تجربتى ما زعمه عقلى ، وطالما كذبت التجارب مزاعم العقول . . فهل يحوجنى ذلك إلى برهان ؟ إذن فاسمع ! هذان شابان تقاربا فى قياس العمر . وتباعدا فى مرتبة المال . عرفت الأول قبل سنين لايحضرنى عددها الآن ، وقد كان ولا يزال كما عرفته ، وهبته الطبيعة ذكاء لايوهب للكثيرين ، وأعطته موهبة أدبية قلّ أن تعطيها لغيره من الموهوبين . . إذا أرسل الشعر كان ساحراً ، وإن عالج البيان كان قاهراً . ولكنه إلى جانب ذلك كان فقيراً . وما أعظم جناية الفقر على الإنسان . . . أيها الناس .

فلو نال هذا الموهوب من الثروة ، ولو شيئاً يسيراً ، لحصل على مايستحقه من الشهادات التى أصبحت مقياس الثقافة فى هذه الأيام ، ونال ما يجدر به من الجاه الذى تقرره الثروة فى هذه الربوع .

ورأيت الثانى : قبل سنتين فرأيت عنده عجرفة البلهاء ، وسماجة الأغبياء الذين جعلهم المال كل شىء بين الناس وهم لا شىء فيما بينهم ! لقد هيأ المال لهـــذا الغبى المحظوظ مركزاً مرموقاً يساعده على تحقيق مايريده من أحلام الشباب ، ولم يقف به الطمع ـ وليس الطموح ـ عند حدود

الجاه وحده - فحسب ، بل أراد مركزاً ثقافياً لايكلفه شيئاً من الجهد - ولا يتقاضاه أجراً من الفطنة والذكاء - فترك بلاده إلى غيرها حيث تباع الشهادات بالدنانير وتستعصى على طلابها بالجهد والذكاء . وقضى فى ديار الغربة سنوات لهو ومجون ، رجع بعدها بشهادة مهما كثر حاملوها فى البلاد فإن لهم منزلتهم واحترامهم بين المجتمع .

هذان صديقان أو رفيقان جمعتهما الظروف ليعيشا متقاربين بالجسم ، وهما متباعدان بالفكر والأدب ، فأحدهما غنى محظوظ ينال من نعم الحياة ما يبتغيه ويحصل من ملذات الشباب مايتمناه . وماذا يبتغى الانسان من النعم ؟ .

وماذا يتمنى الشباب من الملذات ؟ ؟ . الاسراف فى اللهو والمجون . والاندفاع إلى الكأس والحسان ؟ ؟ . تحوطهم مظاهر الجاه والنفوذ !

وثانيهما ذكى موهوب تتجافاه الأمانى وتخونه الأحلام . تتوق روحه لملذات الشباب الأدبية وتطمح نفسه إلى الرفعة والكمال . ولكن أعاصير الخطوب أقوى من منى القلوب ، وأصدق من أحاديث الأنفس . فأين منه ذلك وهو لايملك المال . والمال مفتاح السعادة وسلم الجاه ؟!

لقد فكرت . . فكرت ملياً . . ونظرت إلى الغبى من

بعيد . نظرت إليه من وراء ستار المال ، فرأيت إنساناً أجدر بالشفقة منه بالازدراء ، حيث لا ثقافة ولا شخصية . . ولا ذكاء ولا منطق . . ونظرت إلى الذكى من وراء حجب الفقر والحرمان ، فرأيت إنساناً بكل ما يستحقه الإنسان من صفات الفطنة والحيوية والطموح .

ألا ما أقسى نواميس الحيـــاة !

وما أتعس تصاريف القدر . . . ! !

لقد آمنت بالحظ . . وما كنت لأومن به من قبل . . . !

وقفة على قبر المعرى

بى من خلقه وطباعه .. وبى من نظرته وحيرته ما تضيق عن وصفه القراطيس ، ويجف المداد .. ولو أردت الإجمال فى هذا الوصف ، لما تعديت الإعجاب بشخصيته الفذة ، التى استطاعت - على ما بيننا من قرون وأجيال - أن تنفذ إلى أعماق ، وتستولى على الخفقة الراعشة الأولى من خفقات قلبى ، ويا لله .

ما لهذه الشخصية من قوة وحيوية . . ويا لله من هذه القوة من لذة وروعة .

إن شخصية أبى العلاء لغز مطلسم الجوانب ، عجز عن فك عقدته كبار الفلاسفة ونوابغ الشعراء . فذهبوا فيما يريدون من تعريفه مذاهب شتى ، تختلف على حساب أمزجتهم ، وتصوراتهم . . وبالتالى دراساتهم ، ولم يستطيعوا أن يجمعوا على رأى واحد يغنى الدارس للأدب عن الوقوف على شاطىء الوهم والحيرة فى أمر فلسفة المعرى . . هذا الشاعر العبقرى العظيم .

فمنهم من قالوا : إن المعرى محروم ! . وحرمانه متأصل فى فقدانه البصر ؟ وجاؤوك بالأدلة المستنبطة من تراثه الخالد العريض ، ومنهم من رجحوا أسباب حرمانه إلى نقمته على الحياة ، ونقمته عمن جاء به إلى هذه الحياة ، وليسوا بأقل من سابقيهم من استنباط الأدلة ، واستخلاص البراهين . . إلا أنهم ، وإن اختلفوا فى الجوهر ، فقد اتفقوا فى المظهر ووقعوا جميعاً على وثيقة الأدب بأنه محروم ؟ ! .

ولو فرضنا على أننا فى عصر المعرى ، وأمعنا قليلا فى المقارنة بين العصرين ، لوجدنا شيء من صحة فيما قيل عنه ، وعن نظرته إلى الوجود التى اتهمها البعض بالظلم ، فإنه قبل

كل شيء إنسان . والإنسان لا يفهم الأشياء المحيطة به إلا بعد أن يراها . . ولا يطول مدى تفكيره فى الحياة إلا بمقدار بصره وتبصره ، وإن كان أعمى .

والمعرى - وهو أعمى - كان ينظر إلى الحياة بقلبه ، وبمعنى أوضح بأحاسيسه . . وشتان بين النظرة فى العين ، وبينها فى القلب . . فأية جريرة تسيغ أنفسنا على إلصاقها به حين رسم ما أوحت إليه أحاسيسه على أنها صورة ناطقة للحياة ؟ . ثم ما ذنب هذا الفيلسوف الذى ينظر إلى الوجود نظرة خالية من المقاصد والأغراض ، وأعطى عبر نفسه ومواعظ عقله للناس ؟ . وما لنا نحن وهذا الرجل الذى جعل من حياتها فلسفة أفلاطونية رسم فيها ماشاء من حروف جبرية وهندسية صعبة الحل والمنال ؟ .

خبرنى بالله عليك ! . . أى رجل استطاع فك هذا اللغز وتوصل إلى كنه هذا الفيلسوف ؟ وأى فيلسوف هذا الذى شاء له الزمن فى التعقيب عن محاسن فلسفة أبى العلاء ومساوئها ، وأخرجها للناس دون ظلم ؟ وأين هذا الحكيم ، بل الحاكم المنصف ، فيصف المحنة التى استولت على المعرى وينظر بعدها إلى الحياة بمنظارها الأسود والأبيض ؟

للآن لم يأت أحد بعد !

فالأخلاق عند المعرى لغـزاً قد أعطاه الله وحده وكفى ! وإلا فأى بصير عانى ما عاناه، وقاسى ما قاساه، وقاوم الحياة ضاحكا وباكياً، لا لعلمه، بل لجهل الناس إياه ؟!

أقول مع احترامى لناقديه وجاحدى حقه :

إن المعرى رجل العصر ، وليس برجعى فى كل أمر من أمور حياته .

نظر إلى الحياة نظرة حقة صائبة تجمع بين الألم والفرح والأمن والفزع . . والرقدة والنهوض . . نظرة خالية من المقاصد، صافية من الشوائب .

عاش فى عصر شحت فيه ميـاه العقول ، فقاومه بغيث من عقله . ويعيش الإنسان فى هذا العصر وقد فاضت فيه مياه العقول ، فيقاوم قبضاتها فى ضيق بين من عقله ، وهو لا يأبه لمؤيد . . ولا يأسف لمناقض . . ولا يفرح لآت ولا يترح لذاهب !.

فيا لهف نفسى . . يا رب ما ضرك ـ استغفرك ـ لو كان المعرى فى عصر الغرائب . . فيـا لزمن تهضم فيه الحقوق . . ويا لعصر تضيع فيه الأصول . . ويا لجيل إن قلت فيـه نعم فى موضع لا ، ولا فى موضع نعم ، صدقوك ، وأنت المحق .

يا لهذا الزمان الذى رثاه رهين المحبسين منذ خلق الـكون

إلى أن يفنى . . ولعن الله ظروفاً أبت على الأديب حقه ، والشاعر مقامه ، والكاتب مكانته . . وأكرم بمن يوفر حق المعرى ويدرسه دراسة كافية ، وينصب له التماثيل التى تنطق بنبوغه ومجده . . فمتى . . وأين ؟ ! .

هذه زهرات أنثرها على قبرك يا أستاذى . . . زهرات ذات عبير فواح ، قطفتها من تربة بغداد ، البلد الذى أحببته ، وجئت بها إلى تربة الشام البلد الذى أحببت أن تغفو فى تربته غفوة طويلة .

أنا تلميذة من تلامذة أدبك ورسولة من رسل فلسفتك ، ذلك الأدب وتلك الفلسفة اللذان ينبضان بالحياة ، وأنا دائبة أعمل دوماً بنصائحك وإرشاداتك ، أقضى نهارى وليلى فى مطالعة كتبك والتعمق فى فلسفتك ، ألتقط من هنا درة ومن هناك درة . حتى إذا جمعتها لم تنتظم فى هذا العقد المنسجم المتوافق فإذا بى أذروها مع الريح لأعاود العمل وأعاود الجمع ، وأمشى نحو قبرك حزينة ، شاردة اللب ، مستطارة التفكير ، ملتاعة الفؤاد ، ظامئة الروح ، أبثك عاطفتى ، وأنثر فوق تربتك هذه الزهرات التى جمعتها من حدائق بغداد ، أقول لك إن الدرب يافيلسوفى ومعلمى لاتزال طويلة ووعرة وشاقة !

ألف ونيف سنة مضت على غفوتك هذه وأحس الأدباء والشعراء والفلاسفة فى أثنائها وحشة ، وأحسوا أنهم

مجتازون قفرا ، وشعروا أنهم ضلوا الطريق، وكيف لا يضلون الطريق وكنت لهم الدليل الأمين ، وكنت وحدك الواحة التى كانوا ينوءون لها ويستظلون ظلالها ، وكيف لا يحسون هذه الوحشة المؤلمة وكنت تملأ أيامهم حباً وتراحماً وفلسفة ما استطاع أحد سيراً نحوها أو تفهمها إلا النزر القليل منهم!

هل تعبت يا أستاذى من الحياة ، فآثرت الراحة ؟

هل سئمت صحبة أدباء عصرك ففضلت الانزواء فى هذه الزاوية تسترح فيها وتتخذ منها فراشاً تفترشه ووسادة تتوسدها ؟ فإذا أنت لا تحس زحمة الحياة وضجيجها ، وإذا أنت تنعم بهذه العزلة التى تخلد فيها .

إنى سأجهد نفسى لألتقط من فلسفتك درة ، ومن أدبك درة ، ومن شعرك درة ، وأحتفظ بها وأجعلها عقداً منظوماً ، وأطلع بهذا العقد على دنيا الأدب وعالم الفلسفة ، فإذا عجزت عن ذلك حطمت قلمى العاجز الضعيف ، ولذت بالصمت ، فالصمت خير من الثرثرة كما كنت تقول .

إليك أنت يا أستاذى

إليك يا من أبكانى ذُلك وانكسارك قبل أن يجيش قلمك بالبكاء وتطفح عيناك بالدماء !

إليك يا من جعلنى أشخص بعيون ليلك الحالك ، وأنن لكمانه الباكى .

إليك يامن ليس لفنك بدء ، وليس لإبداعه نهاية . إليك وحدك يا أستاذى أرفع تحياتى . . .

تعال معى يا أستاذى المعرى ، لأودعك عصارة عقلى .

تعال معى لأسكب تحت قميصك البالى أنفاس علمى .

تعال معى لأجعلك دنيتى الأبدية الخالدة . . فأنشدك لحن عذابى التائه .

تعال وخذ قلباً لم تحنه الأمانى ولم تعاكسه الظروف . . ولكن عصفت به فلسفتك ، فبات رهينها يتقلب على فراش السعادة والحبور .

آه . . لقد حرمت فاكهة الحياة يا أستاذى ، فخذ من فاكهتى ما يلهيك ويسليك لتباهى الشعراء والأدباء والحكماء .

هاهو أستاذى المعرى ! . وقد اغرورقت عيناه بالدموع

وراح يبعث من أنينه موجة ولهجة هى أساس الوجود :

— إنك لست الوحيدة تعانين اليتم ، فالطبيعة تبكى لجنايتها على بعض الناس يا فتاتى ! . . هيا كفى عن البكاء . وانشدينى بعض أبياتى . . التى راقت لك .

— اسمع يا أبتى !

أرى ذوى الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سيلك فى مده
إن لم يكن رشد الفتى نافعاً ... ففيه أنفع من رشده
وحامل ثقل الورى جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده

وهنا اختفى المعرى من أمام عينى . . وبقيت وحيدة أتملى فلسفة الوجود . . وأطالع فى رسالة الغفران .

عتاب

« إلى الذى عاكسته الظروف وخانته الأمانى . .
إلى المعرى أرفع شواظ عتابى ! »

إليك يا أستاذى الجليل ، أرفع أسمى آيات عتابى .
فلقد حرمتنى سنة السكرى ، منذ شغفت حباً بك .
أناجيك محبة . . دون أن تعزيك مناجاتى .
وأناغيك مسهدة . . دون أن يلينك سهادى . . .
ما لك لا تجيبنى يا أستاذى . . أنا الواقفة ما حييت على قبرك ، وذرفت ما ذرفت عليه من عبرات . . أفلا تعطف علىّ ، وتنهض من آخرتك لتستند بكفك على كتفى حيث أكون رفيقتك فى السراء والضراء ، ومعينتك على الهم والألم ، ومؤازرتك على الضعف والوهن . . وجارتك فى العوز والرفاه . . وشريكتك فى كل مقدرات الحياة .
الله . . أما لهذا الليل المخيم على قلبك من نهاية ؟ !

* * *

ودلفت إلىّ الذكرى بلألائها وشجونها . . وتوهمت أننى أجد المعرى .

وددت لو تتقبل منى هدية بسيطة بالنسبة لمكانتك . . وماذا تهديك فتاة مثلى يازعيم العقلية ؟ .

فاستغرب الشاعر العظيم وقال : هدية ؟ !

قلت :

— نعم يا أستاذى !

فأجابنى ضاحكا وفى شىء من الحيرة والالتياع :

— أنا يا فتاتى سعيد بك . وبحسن نواياك .

فأجبته فى دهشة :

— سعيد ؟ ! ما أضل عقول الناس ! ليسمع الأدباء ويستبصر الحكماء ، وليهتف الفلاسفة والعظماء ، لقد حلت مشكلتهم ، إن المعرى سعيد ! ومن قال لكم إنه شقى ؟ ! .

وتابعت حديثى :

— ياسيدى إن لى عندك مأرباً ، أتقضيه ؟ ولى بين يديك مرمى ! أتنجزه ؟ وبين المأرب والمرمى هدية بسيطة جداً . . وهى منى إليك .

فقال :

— أأبق بالنعم . . أو اللا . . دون استفسار ؟ .

فأجبته :

— هذا حقك . . ولكن هديتى هذه بالرغم من بساطتها

سيحسدك عليها الناس أجمعين . سواء أتفضلت بالقبول أو أبيت .

كفانى يا رهين المحبسين التمتع بعينى . . رأيت الطبيعة فأعجبتنى . . وشاهدت الكون فاستحسنته ، حتى تعبت عيناى ومالى سواهما . . وما أبسط هديتى هذه إليك ؟ !

وهنا انتفض المعرى انتفـــاضة نبهت جميع الموتى ! وتهامسوا مؤيدين غرامى به وهيامى :

ــ عيناك ؟ ! .

قالها المعرى وهو عجب .

قلت :

ــ بكل سرور يا أستاذى .

فدمعت عيناه المطفأتان دمعتين حزت كبدى . وجرحت قلبى . فكفكفت من عينيه القطرتين ، وتأوهت وجداً عليه ولم يلبث أن قال :

ــ أشكرك يا فتاتى . . أشكرك على رفضى هديتك . . ويكفينى أن أعيش سعيداً بحديثك .

فيا أيتها النظرة . . كونى عتاباً للمعرى . . لأنه لم يتقبل هديتى ، واحدقى فيه بانكسار وقولى له عنى :

ــ ما أقساك علىّ يا أستاذى ! .

أيها القمر ...

عرفت وجهك ضحوكاً ، وثغرك ذا ابتسامة لا تخلو من الآلام والمصائب !!

فما بالك تنكر وجه السرور ، وتجحد طيب السعادة ، وتجهل طعم الأفراح ؟ .

فيك يا قمر جمال الحياة . . وجاذبية الطبع . فما لعينيك الساهمتين تنطقان بالأحزان ، وتتحرى دقائق الأمور ؟ .

علام حيرتك . . وعندك من مظاهر الجمال ومعالم السرور ما يكفيك ؟

خبرنى أيها القمر .

لمن هذه الدنيا إذا شكوت . . ؟ ولمن هذه المباهج إذا كفرت . . ؟ أليست كلها منك وإليك ؟ .

فإلام وإلام تخفى وراء ثغرك الباسم لغزاً مضاعفاً يفتقر إلى التعبير ويحتاج إلى التفسير ؟ ؟ .

هاتنى يا قمر صديق المعرى . لأقاسمه سر سعادتى وغموض هنائى ! ! أما علمت أنه ملهمى . . أين هو . . فإن وجدته . . فيا لله قلبى . . متى ؟ وأين ؟ . فهو موضع أسرارى . . ومستودع آمالى . . ومنبع أحلامى . . ومرتع سعادتى وشقائى ؟ .

أما إذا خاننى الحظ فى العثور عليه . فأرنى خياله . وخبره .

لئن جحدت فضل نفسك يارهين المحبسين وأنكرت قدرك وجهلت حقيقتك . . فلا تنس أن هناك . . فتاة . . قد تعشقتك ، سواء أكانت عالمة أم جاهلة . ولا تنس أيضاً فهى فتاتك . . أو بالأحرى . . تلميذتك . . دستورها نظرياتك وآراؤها آراؤك . . ترى من هى يا فيلسوفى العظيم ؟ .

مناجاة ...

قال العقاد :

« خبرينى يا حكمة الحكماء ، وحدثينى يا هداية الهدا ، وأجيبونى يا من تضعوا المنظار لحظة على عيونكم اللامعة فتلمحوا الفارق الكبير بين الحجر الثمين والحجر العادى ! . »

من هو معبودى ؟ .

أهو لغز صعب حله ؟ أم هو فلسفة غامضة حيرت

عقول الفلاسفة ولم يجدوا لها حلا ؟ والله لأحتار أن أعبر عنك يا معبودى « المعرى » . . فأنت حبيبى الذى أودعته حبى العذرى ، وأنت زميلى العظيم وأنا فقيرة ، وأنت منيتى التى أحتفظ بها فى حنايا فؤادى !

والله .. لو كانت لحياتى قيمة فأنت الذى رفعتها ، ولوكان لعمرى من طعم فأنت الذى أغريتنى به . . ووالله لا قيمة للحياة يا معبودى بسواك ، بل لاقيمة لاعتقادى إلا بك !

إيه يا ملهمى . . إنى فى حيرة . . فبأى لغة أخاطبك . . وبأى لسان أناغيك ، وبأى لهجة أناديك ؟

أخاطبك بلغة العاشق المستهام الذى تعمق فى فلسفتك ، فزاده خيالك طرباً ، وهزّه تشاؤمك اضطراباً تارة وهدوء تارة أخرى .

فما أعظمك من قلبى منزلة ، وما أجدرك من عقلى قيمة ! !

وأناغيك بلسان ما لفظ يوماً ولا نطق بكلمة « معبودى » وتراه اليوم ينطق بها لك .

وأنت تدرى ماقيمتها . .

أناديك بلهجة مجهولة هى خلاصة ماتباين من اللغات واللهجات وما اختلف ، ونهاية ما تقارب وما ائتلف ! فهل سمعت لهجتى يا ملهمى ؟ ؟

والله . . والله لو تفتدى بالروح ، ومالى سوى الروح ، لافتديتك . . ولو تشرى بالصحة لاشتريتك . ولكن الزمن بخيل ، شلت يده الشحيحة ، لا يقبل التعويض ، ولا يعترف بقيمة الشخص إلا صدفا ، فأين الصدف منى ومنك ؟

معبودى الغالى ! . .

لايأخذك العجب من هيامى ، ولا تستغرب من مناجاتى ولا تقطب حاجبيك لاعترافى . فإنى مع اعتذارى جازمة حقك ، وسالبة قيمتك ، فشأنك لغز لا يحله إلا الراسخون فى العلم وقد يصعب عليهم حله .

أكلمك بلغة الإخلاص فلا دافع يدفعنى غيره ولا قائد يقودنى سواه .

أنت الذى عرفتنى فتاة حملت من نبل الصفات وسماحة الخلق ، ما رأت فيها الكفاية لتقول لك « معبودى » ، وكفى الحليم إشارة ! !

ناولنى يداك ، وسر معى ياوحيدى ، ومؤنسى ، ومرشدى فى الأفراح والأتراح ، فلقد أعيانى التعب ، وأكل جهدى الأعياء . . تعال معى واتخذنى شبه خادمة ، أنظف بيتك البسيط ، وأرفه عن حقدك على كل فلسفتك ، وأرفع عنك كابوس النظرة الطالحة . .

خذنى « يا داد » ودع الناس . . والناس فى لهط وهرج يتمنون ما تتمنى نفوسهم ، وأين التمنى منهم ؟

فإن وجدت تنازلا فى حديثى فخذنى خادمة دون علمك ، وكاتبة إن أردت الكتابة ، ومسلية تفرج عنك الهموم . . مالك لا تجيبنى ! ! أأذهلك الحديث أم راق لك واستغربته ؟

ما لك لا تسعف روحى الظامئة بنقطة ماء من ماء أدبك الرفيع . . مالى ولهذا الوجوم الديمقراطى الذى جعلنى ديمقراطية أشعر بأمس الحاجة ولو إلى نظرتك . . آه منك . . وآه . . لا تتدلل فلقد أعيانى دلالك ، ولا تتمايل طربا فأخشى السقوط فى شرك لغزك .

آه منك وآه . . فلم هذا السكوت . . هل هو عظمة ؟ لا أدرى ! هل هو غطرسة ؟

حاشا . . . عهدى بك على منتهى البساطة فلِمَ كل هذا وذاك ؟ .

أجب يا عبقرى ، وخذ فنجاناً من القهوة المثلجة علها تهدىء أعصابك .

الله ! الله ! ما هـــذا . . ماذا أكلم فوق الفلسفة ؟ إنها جرأة منى ! ولكن طالما أوحيت لى سر الحياة ، فدعنى ،

وقل ماشاء لك أن تقول ، وخذنى وديعة طاهرة الذيل أتلقب بـ « خادمتك » .

فرد بانتباه ، وكأن طول حديثى لم يسمع كلمة منه إلا ودعنى أتلقب بخادمتك :

ـ حاشاك ! حاشاك ! أنت فتاتى ، ونعم الفتاة !

ألا ما أسعد المعرى . . وما . .

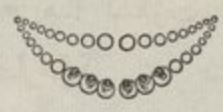

فى سكون الليل ...

فى سكونك يا ليل متعة وروعة ... وفى هدوئك يا ليل رهبة وخشوع !

فى أحنائك يا ليل نفس هادئة .. تستلهم سر الوجود .. وتناجى أمانى الحياة .

لله ما فى سكونك يا ليل ! .. ما ألذ متعتك .. وما أعظم روعتك .. وما أجمل هيبتك وخشوعك .

إنها لتبعث فى النفس الملتاعة أملا .. وفى الروح الحائرة بهجة وسروراً ! .

لهف نفسى يا ليل .. كم من نفوس ملتاعة فى الوجود .. وكم من أرواح حائرة فى هذا العالم ؟ .

لقد نامت أعين الناس .. ورقدت أجسامهم .. فما بالى وفلسفة المعرى تتقاذفنى يميناً وشمالا .. فحرمت اللذة فى عيشى وعزّ الكرى على عينى .. وتاقت نفسى لاستطلاع شخص جحد حق الإله .. واغتصب حق نفسه بنفسه ! .

فى سكونك يا ليل مناجاة بين نفسى المستطلعة للأسرار وبين من هم أصل أدبى .. وأساس خلقى .. ومنبع طباعى .

وفى سكونك يا ليل بهجة ولهجة ، تختلف عن بهجة النهار ، ولهجات الناس . . فأنت الذى قرّبت أبعد الناس عندى ، وباعدت أقرب الناس إلىّ ، وفى بُعد أولئك وقُرب هؤلاء لغز فلسفى وسر عجيب ، إن كان مصدره المعرى فنعمت المعرة التى أنجبته . . وإن كان سره (طه حسين) لأنه حاول إعطاء بعض حقوق المعرى . . فما أعظم الدنيا بهمزة وصلك يا (أبا فاطمة) .

* * *

أيتها الأراضى الشاسعة ! أيتها السماء الواسعة ! . أناجيك وأنا فى دار العزلة . . فما للناس شغلوا بالهم بأمر شغلت بسره ؟ ألكونى من أنصارك يا أعمى المعرة ؟ . .

فليقل الناس ما شاءوا . . وليتحدثوا بما أرادوا . . فلن يزدنى إيلامهم إلا وثوقاً فى نفسى وإغراقاً فى ميولى !

فى سكونك يا ليل يهزنى الشوق إلى مناجاة المعرى . . فأتخيله ببساطة عيشه . . وعظمة عقليته . . وفلسفة حياته . . وثقافة نفسه . . أنبل ما يمكن ، وأعظم ما يكون .

فأجادله . . ويتلذذ بمجادلتى . . وأشاطره همه ، وغمه . . فيلومنى لاعتصامى به . . وكلما لامنى على شىء فى ذلك أو أراد إيلامى لا يجد فىّ إلا شوقاً إليه ، وتلهفاً على عقيدته .

سكونك يا ليل حركنى وأيقظنى . . فشاهدت معرينا يكنس أرضه بيده جالساً على حصير مشرف على التلف ، فأردت أخذ المكنسة لأنها من بعض شؤون الجنس اللطيف فرفض شاكراً صنيعى ، ووددت أن أسقيه فنجاناً من الشاى أو القهوة ، فقبل بعد تردد قليل .

أية سعادة أيها القارىء العزيز تغمر فتاة فى سنى لو أنفقت حياتها خادمة فى بيت الأدب والفلسفة ، لترتشف من المنهل العذب ، وتعيش فى الخيال البهيج .

سكونك يا ليل صوّر لى مرض المعرى ، وأنا ممن تجيد فن التمريض ، فأردت أن أقوم بتمريضه ، وترويح نفسه مما تكابده من هموم الحياة . . وإذا بالطبيب يصف له ماء دجاجة

صغيرة ، ولما جئته بها خاطبها قائلا :

— إيه يا مسكينة . . استضعفوك فوصفوك ! لِمَ لم يصفوا شبل الأسد ؟ . فاذهبي فى حراسة الرحمن .

فعجبت لهذه النفس الرحيمة بعطفها على الحيوان ، وهى لم تعطف على نفسها مثله ! .

وعجبت لأمر الناس ، وهم فى عصر النور والسرعة ، كيف يؤذون الآخرين ويعملون للقضاء عليهم .

وآه ! فى سكونك ياليل شيعت جنازة المعرى . . فما أعظم أسفى . . وما أشد ألمى . . وما أروع لهفى لتلك السويعات الجميلة التى جمعتنى بروح المعرى فى عالم الخيال .

إيه يا سكون الليل . . لم أجد ما يوصل إعجابى إلى المعرى إلا نسيمك العليل ، فبلغه تحيتى الخالصة وقل له عنى :

— لئن حرمت المداراة حياً ، فخذنى لأداريك ميتاً . . وأرعى رميم عظامك . . فلعل البعث يخلق معرياً آخر فى عصر السرعة والنور . . ولكن هيهات . . هيهات . .

أجل . . وهنا هتك الليل ستره ، وخفت صوت كان شجياً كهدير الحمام . . وقطعت مناجاتى ، وانحدرت إلى مخدعى يهزنى للمعرى شوق شديد تضيق عنه الصفحات .

متى يا زمان تجود بمعرى ثانى ؟ ! .

نجوم لبنان

لا تعجب من هذا العنوان أيها القارىء العزيز .. فما عهدى بك إلا كعهدى بى .. هادىء الخاطر ، مرتاح البال ، فى السراء والضراء .. ذا قلب إنسانى لا يهون عليه حتى ، لو سرقت محتوياته ، ولا يجد الغضب إلى نفسه سبيلا حتى لو كشفت مضامينه !! وهل هذا العنوان أغرب مما تتصور فتعود إلى نفسك تسألها :

هل أقصد بنجوم لبنان .. نجوم السماء ؟ .

أم أعنى النجوم التى نتصورها نحن الشرقيون أو (إخواننا الغربيون) كنجوم هوليود ؟ .

أم .. أم ماذا ؟ .

عفواً ومعذرة .. لا تتعجل باستغرابك .. فعهدى بك كما قلت .. كعهدى بى ، هادىء لا بارد .. وذا قابلية للاستفهام فى حالتى الغضب والسرور .. فان صح طبعك كطبعى .. ومزاجك كمزاجى ، وروحك كروحى ، وعلائم استفهامك كعلائم استفهامى .. أدركت ما أقصد بنجوم لبنان .

آه .. من نجومك يا لبنان .. وألف آه .

إنها لتجمع الحقيقة والخيال تارة .. والسعادة والشقاء ..

طوراً .. واليأس والرجاء حيناً .. والتمتع والحرمان مرة . .

فماهى نجومك يا لبنان ؟

هى كالبحر الهائج المائج .. تلتمع بجوهراته النفيسة كلما زاد غوصها فى القاع .

فما هى نجوم لبنان يا ترى ؟ .

الله يا ألله من تكرار هذا السؤال ؟ .

هن . . هن المسلولات . . اللائى ضمهن مصحك يا لبنان بحكم الأقدار القاسية ، فاجتمعن فى سماءك .. من قاص ودان.. ينظرن إلى فاكهة الحياة بعين دامعة لامعة كالنجوم .

أليس كذلك ؟ . . خبرينى بالله عليك يا أيتها النجوم . . وارحمى شبيبات يفتقرن إلى ميعة الصبا ؟ .

يا للظروف القادرة على خرق هدنة الحياة . . فهى التى

حركتنى بعد جمود . . وأيقظتنى بعد رقود . . حينما تطرقت إحدى الكاتبات لهذا الموضوع المؤلم المضنى . . ولا أدرى لماذا وقع اختيار الكاتبة عليه ؟ ألأنها شعرت بأنى أنظر إلى الحياة نظرة ضيقة ؟ أم خامرها شك بميلى إلى عميد الأدب « طه حسين » ورهين المحبسين ؟ أم ماذا ؟ ومهما يكن من سبب . . فلقد أعددت له حديثاً خاصاً ينفرد به أضيق به الآن لأشرحه مفصلا .

ليت شعرى . . ما شأن نجومك يا لبنان ؟ .

لقد فاض لها دمعى . . وابتسم لها قلبى ، وأصبحت بى منها ما يعجز عنه القلم ، وتضيق به الصفحات . . لأسجل شعورى تجاه زميلة ، ودودة . . مخلصة . . . وما أرانى والله . . . إلا منقادة تارة . . ومنساقة تارة أخرى بحيرتى . . فأخشى أن أنبه القارىء ، وهو غافل . . وأخشى أن أحركه . . وعهدى به الرقود . . وأخشى أن يلومنى لمزاجه العصبى . . ولمختصر تعبيرى عن نجوم لبنان . . وأخشى . . وأخشى . . ولكن مادام من طبعى الهدوء ، فلا داعى لأن أخشى هذا . . وأهاب ذاك . . طالما كانت لى الكفاءة فى كلا حالتى الاستفهام . . سواء غضب أخى القارىء أم سرّ ! .

شفى الله كل مريض وعليل . . وحسب نجومك يا لبنان بتحية منى كل رجاء لتحقيق آمالك .

مجدك خلقك

[الى الذين أو اللواتي .. حاولوا أو يحاولوا أن يحطوا من كرامة الفتاة العراقية في اليوم الذي يفتقر فيه العراق الى فتاة ناهضة] .

أيها القارىء العزيز . . ليس إسرافى فى التشاؤم هو الذى دفعنى إلى الحديث . . حيث التشاؤم أبعد الأشياء عن طبعى . . وسواء أصدقتنى أو كذبتنى فإنى هادئة ساكنة أمام كل أمر من أمور الحياة .. الذى اتهمتنى فيه أو تحاول اتهامى .. وخصوصاً التشاؤم . . فهو أشد منافرة لمزاجى حين التفكير والكتابة والقول .. فلست أكره الحياة ولا أحبها .. فكرهها قد يتمنى فى شىء قد يجوز عنه غافله . . وحبها قد تذهب بك ظنونك الشرقية إلى ما تحدث ولا حرج ! ! .

فما لك ولطبع شاذ . . وما لك ولقلب يحمل من الشواذ أنواع تحتار فيها وأنت فى مزاج قد يكون برتقالى ! .

أخشى أن أحدثك عن نفسى فتستيقظ وأنت نائم من عناء اليوم .. وكما تعلم أن الحياة ليست أكلا ولاشرباً ولاسعياً

إلى الجاه والسلطان ، ولا لهواً بالكلام الذى يؤذى ولا ينفع .. والآن فكن على جهلك كنصيحة منى إليك .. وأحياناً كما يقول المعرى رحمه الله : « نعمة سابغة » .

لاتضطرب .. تعال معى أيها الأخ العزيز نسير فى شارع الهدوء والسكينة الذى خلت منه رقابة الأعين .. وتباعدت من حواليه ضجة (وعجة) الناس .. وتأكد أننى لست الفتاة المتمسكة بذيول المدح والثناء . فالحياة فى نظرى تافهة جداً وأتفه ما يبهر نظرى فيها هو البشر المسكين .. هذا المخلوق الضعيف أمام تيارها ، وهبوب عاصفته لا تنهزم .. قف .. فمهما أطبقت السماء على الأرض فلا تنس أننا بشر .. وقلما انهزمنا أمام تيارها وانتقلنا من ريحها فإذا نفوسنا ـ آه مسكينة نفوسنا ـ ضعيفة تارة كل الضعف ، وقوية كل القوى .. هيا لننهزم .. ثارت عاصفة إثر عاصفة .. وإذا بنا ننتقل من هزيمة إلى هزيمة ، ومن ضعف إلى ضعف ، ومن خور إلى خور .. زاعمين أننا لسنا المخذولين أمامك أيتها الحياة !! .

إيه أيتها الأمانى العذاب ؟ .. أية شخصية تلك التى تقف بين يديك لترضيك أو تنل على الأقل شيئاً من رضاك ؟؟ آسفة جداً ـ فليس هناك سوى خلق قويم ، لا جمال عظيم ، ولا كمال سليم . فالكل وراء المادة راكضون .. وماذا تريدننى

أيها القارىء العزيز أن أقول سوى : أفٍّ لزمن ويالزمن قد تغير وتبدل . . ومؤهلات الحياة قد تدهورت . . أعنيك أيها البشر ـ المغرور . . فإذا سكت لاموك ولاموا سكوتك ! . وإذا تحدثت عن مآسى الحياة ـ لا لكونك مأساة من مآسيها ـ اتهموك بميلك إلى التشاؤم ، ومسكين أنت أيها البشر حتى لو أصبحت بين سكوتك وكلامك قالوا عنك : ما أذكاه . شأنه شأن التاجر اللبق الذى يتحرى دقائق أمور الحياة ليصل سفينته التائهة إلى الشاطىء الأمين .

تباً لك أيتها الدنيا . . الفانية . . التى اضطربت حياتها وتعثرت خطواتها . . فمسها الضيم وهى أبية . . وسامها الهون والذل والانكسار وهى كريمة . . ياإلهى غيث من رحمتك . . أنهاية العالم على هذه الشاكلة المثيرة إلى الفناء . ليت قبل يوم .

يا إلهى . . رحمة لهذا العالم المضطرب الذى بات أفراده يتضورون ويتلوّنون كأنهم (عظم عاج) على سطح البسيطة . . فالأخ لايؤتمن على أخيه ، والصديق لا يبالى بخيانة صديقه . . وهنا أفراد غريبة عجيبة تحط من شرف الفرد وكرامة حقه ، كأنها تعلك علكا . . دع أيها القارىء هذا النوع البشرى الذى غضب حتى الله عليه ، دعه وتعال معى لنقطع هذه المسافات سواء أكانت طويلة أم قصيرة . . أنظر إلى هؤلاء

الموتى الذين تباينت أزياؤهم . . وقف رويداً وناد حفّار القبور أن ينبش هذا القبر العالى . . سله بربك ! . . واجلس بجانبى ، ولا يعتريك الاضطراب ، فإنى معينتك على السراء والضراء . . سله ! كيف تذوى الأعمار ، وتطمس الآثار ! . وتذهب الآمال . أنظر إلى هؤلاء الموتى لاهمسة ، ولا غمرة ، ولا حركة شفة . . أنظر بنى آدم المساكين عند ما يجد الجد ويقعوا أمام الحقيقة التى لامراء فيها . . الله . . الله . (ولك) هذا قبر آخر طمست آثاره ، ولم يعد حتى لذكراه آخرة . . ما لك . . أجب . . أأذهلك الحديث ؟ أم راق لك واستغربته ؟ ما هذه العبارات تتخلل أجزاء نفسك ، وتدب عظمك فتسرى إلى مكمن حسك . ؟

لا . . لا أيها القارىء . . عهدى بك الصبر ، حتى ولو طوّح بك الهلاك إلى الموت . . سترجع قريباً إلى الحياة . لا تخف . .

وهنا انتفض القارىء بغتة :

— وا ويلاه ! . . أهكذا يذهب الصبا ويهرم الشباب يافتاة الانسانية ؟ ؟

— (بكل هدوء) نعم ، نعم لا تضطرب ، والآن دعنا من هذا القبر . . فقدسئمناه . . تعال نسأل حفار القبور ثانية لينبئنا

عن هذا الضريح الذى لم يجف ماءه بعد .. آه وآه .. مالنا نضحك ، أنسينا أنفسنا ونحن فى وادى الفناء . . فاضطرب الحفار أثناء مجيئه وقال بلهجة قاسية :

— أتضحكون حتى على الموتى ؟

فأجبته على الفور :

— لا ياعماه ! . . أما علمت أن الضحك والبكاء كلاهما سيان فى موقف هكذا .

وكان الحفار يعلم صفات هذه الآنسة الفاضلة التى كتب اسمها فوق ضريحها . . فرد وهو يبكى :

— هى هيفـــاء . . حسناء .. بلغ بها الكمال والجمال ، والخلق ، إلى هيبته اللائقة .

فتهامست والقارىء الذى سايرنى :

— هلا تذكرها ؟ . . حدثنى عنها .

— بلى والله . . ماذا أحدثك ؟ .

— كانت تصعر خدها كبراً ، وتثنى إعطافها عجبا ، وتجر أذيالها جراً . وتتهادى فى مشيتها والتفاتاتها ، كأن بنى آدم وحواء المساكين فطروا وتغدوا وتعشوا على فتات مائدتها سنين عدة وحقباً مديدة . . مسكينة دفنت وهى حية .

— الله .. الله .. ماذا تقول ؟ أى حى يدفن فى زمننا هذا !

ـ لا تعجبي يافتاة الإنسانية هى الأخلاق الحسنة دفنت فى هيكل فتاة حسناء !.

ـ وامصيبتاه رضخت تحت اللحد .. إنالله وإنا إليه راجعون .

إيه يا أيها البشر !.. نحن بشر .. ألا زلنا بشر ، وقد دفنت معظم الأخلاق العالية والتربية الزاهية ؟ أقول :

نحن سطر فى سجل العناء ، وسر فى ضمير الفناء ، ولغز فى دفتر القضاء .. فإذا متنا كانت الأخلاق قد ماتت قبلنا ، فكأننا بدونها لم نخسر شيئاً فى الدنيا سوى آهة تعقبها آهة ، وآه من الآه .. وهكذا تنتظم خرز الآهات بعضها بعضاً .. فطوراً تبدو منسجمة منتظمة .. وطوراً لايعرف الانتظام والانسجام إلى شكلها سبيلا .

عشنا فأنكرونا .. ونموت فيذكرونا ، ويحسدونا ، ويظلمونا فوق نكرانهم . فلعلهم يبحثون عن ضالتهم المنشودة وغايتهم المفقودة .. ألا وهى الأخلاق .. وهم فى حرمانهم من متعها تراهم لاشاغل يشغلهم سوى طعن الكرامة ، ومس الشخصية ، علهم يصلوا إلى ثقافة خلق وتربية نفس .

مساكين .. كم هم ضالون !!

فعيونهم غفلت ، وقلوبهم غلقت ، وأفئدتهم قدت من

صخر . . فسواء أكانوا أحياء أم أموات فهم بشر ، واقرأ الفاتحة على هذا النوع من البشر . . وإن غرتك قوته المادية والمعنوية فهو خال من الروح الحية المملوءة بالأخلاق الفاضلة كما قال المعرى رحمه الله :

ومجد الفتى أفعاله لا الذى من قبله كان ولا بعده
ولولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم فى وجده

والآن ، وبعد أن ظلمونى بالتشاؤم أو ميلى إليه . . وماذا أقول فى زمن كزمننا هذا . . فيه الظلم مباح ، وكسر الكرامة مذاع . . وما عسانى أن أقول غير كلمة : واشكراه .

إليك يا أستاذى المعرى أنا مدينة . . فقد علمتنى الصبر والتجلد حتى ولو طعنونى فى الصميم .

لاتظلموا الموتى فإنى أخاف عليكم من الردى أن تلتقوا

وأخيراً .. خاب الأمل

لا غرابة فى هذه القصة أيها القارىء الكريم ، قد تكون حقيقية ، وقد تكون خيالية ! وقد تجمع بين الحقيقة والخيال . ومن الغريب جداً أن تدهش أو تذهل . . فاليوم يوم تجد فيه الكذب والبهتان مباحا . . ولا أعلم : أهى نهاية الحياة ، أم بدايتها ؟ حيث كنت قد نوّهت فى إحدى كتاباتى أن الحياة مزيج من مادة مجهولة تبعث إلى الحيرة والتأمل . . ولكن بأى منظار ؟ إذن فاصغ !

توفى والد « مى » عن عمر يناهز الستين عاما قضاها فى البر . . وخلف ورثة له فتاته « مى » وأخاها « سامى » وقد نعما ردحاً من الزمن بميراث والدهم . . وبعد مدة وجيزة أعقبته الأم لإصابتها بمرض القلب . وهكذا أصبحا يتيمى الأب والأم فى إرث مشترك واحد ، فتحاور الناس فى التقرب والتودد إليهما . . ومن إشراق الشمس وضحاها أخذت المالية فى التدهور رويداً رويدا ، حتى أشرفا على عسر القوت . . وكانت الفتاة لم تكمل دراستها الإبتدائية . . تبدو أنيقة المظهر ، جذابة الهندام ، فيها من طراوة الجاذبية ما جعلها موضع الحسد بين معظم الجنس اللطيف . . ولم

تكتف الأقدار المتعاقبة أن تحرمها حنان الأمومة ، بل أخذت تتقرب إليها كأنها صديقة وفية .. فدارت الأيام .. وشاء الزمن أن يلعب بأوتار قلب هذه الغادة ليمتحنها . وهكذا فتحت الأقدار صفحة جديدة للفتاة ، فقد تعرفت يوما ما على شاب يدل مظهره الاصطناعى بأنه من نوع يلفت نظر الفتاة . وهذا ماجعله موضع الحسد بين خلانه .. والغريب ، أيها القارىء الكريم ، أن بعضاً من الفتيات يحلو لهن التقرّب إلى مثل هذا النوع الارستقراطى .. ولا أدرى ما السبب ؟ وهكذا أصبح ، ولاسميه « نبيل » ، وإن كانت بعض الأسماء لا تليق بأصحابها فى موقف لا يشار إليه بالبنان فحسب ، بل ذا جاذبية ، هى التى جعلت معظم الفتيات يتوددن للاقتراب نحوه ، وخصوصاً الساذجات ، ومنهن طبعاً كانت « مى » .

أما كيف بدأ التعارف ، فبعض يقول بأن نظرة قد فعلت فعلتها .. ويدعى الآخر بأن أخاها كان السبب لوثوق عرى الصداقة بينهما . ومهما يكن فحدث ولاحرج ، والذى يعنينا أنهما كانا على صلة وكنى !

وكانا على عادتهما لايفترقان .. سواء إلى مشاهدة بعض الصور المتحركة ، أو السير جنباً إلى جنب على شاطىء أبى نواس :

ومشى الهوى بهما كعادته والبحر لا يخلو من الزبد

وتمكنت الصداقة بينهما . . وتوافرت الأدلة على أن زواجهما أصبح أقرب من الحاجب إلى العين لثقتهما ببعضهما . ولكن الشاب ذو المظهر الاصطناعى . . يتصنع حتى فى حبه وإخلاصه . . ومن النادر أن تجد مثيلا له . وعلى ذلك فالفتيات اللاتى يحرفهن تيار كهذا من المرتقب أن تطأهن عجلات الحياة به . وما أن حان وقت الزواج الشرعى . . وأخذت عينا الفتاة القريرة تستعلم عن موعده استفسارا . . حتى أخذ «نبيل» فى مماطلة الوعود بأنه والزواج على طرفى نقيض ، ليس منها فقط ، وإنما من كل واحدة ، وما صداقتهما إلا بريئة خالية من الأغراض والمقاصد ! فبقيت حائرة بين أمرين : فهى إن باحت قتلها الخجل والفشل ، وإن قنطت ساءها وأودى بها اليأس إلى وضع خطة لحياتها ، إما الانتحار أو الإدبار . فأناس قالوا انتحرت غرقا . . وآخرون ادعوا أنها هربت . . ومهما يكن من أمر . . فالناس يهمهم التفتيش والتنقيب حتى فى خلايا النحل ليتلمسوا الشهد . . وهكذا ترعرعت «مى» بين غنى يهبها شوقه وحنينه ، وفقر لاذع مر يؤلمها امتحانه ومقاومته . . وكانت فى فقرها وغناها من الفتيات اللاتى تسرعن بتمثيل دور الحياة . إلا أن عوادى الشقاء إذا نشبت مخالبها فى إنسان لا تدعه

يقف على قدميه دون أن تقذف به كالكرة .

وإنى أريد أن أسأل القارىء العزيز : على عاتق من يقع ظلم « مى » سواء هربت أم انتحرت ؟ . فالحالتان فيهما الشك ظاهر ملموس . . على عاتقها وقد كانت صغيرة السن ؟ أم على عاتق « نبيل » الذى كان خبيراً باقتناص الفتيات أمثال « مى » ؟ أم الزمن الذى جعل الحياة فى نظر الجنسين سخرية . . فباتت الوعود والوثوق حذاء يخلع فى كل آن . ومهما يكن فلكل امرىء خلقه وسريرته . . وخلق زمننا هذا على السرعة والنور والغرائب والعجائب !

ليت القدر يعف حين يقسو !!

هذه عبارة يرددها فمى فيسمعها قلبى ، وتلمسها يدى فتحسها أناملى . . كمن يعزف على قيثارة الحياة ليفتش لحنها الضائع وأملها المفقود . . لذا أردت أن أعزف لحنها ، لا ليسمعها الناس فيلومون العازف والمعزوف ، بل لتسمعها نفسى كذكرى سجلها قلبى العاجز الضعيف على صفحة زمنى ، فبانت الحياة من جراء تسجيلها بمنظار كالثوب البالى . .

قالت صديقتى رحمها الله :

ـ أى شىء على هذه البسيطة يستطيع أن يمنحنا الهناء الدائم ؟

فأجبتها بهدوء وقد ظننتها مازحة :

ـ تبارك الله . . . إنه لايحرم إنساناً من ناحية ، إلا وأغدق عليه أخرى .

ـ لم أفهم ماذا تعنين ؟

ـ أعنى الكل سواء ، ما من أحد أقل من غيره مهما يتصور .

فاستغربت وأردفت قائلة :

— أيأخذك العجب لو قلت إنى فتاة كذب ، وغال فى الكذب من ظن بحسن طالعى .

— ما الداعى لهذه الأوهام يا عزيزتى ؟

فأجابتنى والدموع تفيض من مآقيها :

— عهدى بك زيارتى الأخيرة .

— ستسافرين . . على خير .

— نعم سأسافر إلى حيث لارجعة !

— خير إنشاء الله .

— أما علمت أنى جريحة قلب لم تلتحم أنسجته على أثر سهم القدر !

— بالله عليك . . أجادة أم مازحة ؟

فردت ببرودة متناهية (كمن أعيته أثقال الحياة فبقى من جراء عبئها الثقيل نائحاً وهو لايدرى أكان الليل الباكى أضناه ، أم ضوء النهار أشقاه) :

— وأى شىء فى الحياة يقال له حقًّا أنت جد أو أنت مزح . . .

قالت ذلك وراحت تنفث دخان سيكارتها فى أنين خفى به حركة وحرقة وضنى !

فأجبتها كمن لامست حرقة زفيرها وجهه :

ـ تريثى يادادة . . فعهدى بك فتاة صابرة . . ما تصدع قلبها من جور الزمن ، ولا هدّته أحداث الأيام .

فقاطعتنى وصوتها يكاد يختنق :

ـ ولكن عصفت به عاصفة اكتسحته من عروقه فبات والعيش ضيف غريب عاش بقلب ومات دون تحسس بقلبه !

ـ وما هى قصتك ؟

فردت على الفور :

ـ أتذكرين . يا أختى ! . .

ـ بلى والله .

ـ ماشأنك بأيامنا ؟ ؟

ـ مضت بخير !

ـ ألا يزال الخير خير ؟

ـ ذاك ما أرجوه وأتمناه ! . .

ـ أما سمعت عن شقائى ؟

ـ (بعجب) وأى شقاء هذا الذى تدعينه ؟

ـ آسفة ! . . لقد أهملت صداقتى الأولى مذ كثر تودد بنى جنسنا نحوك . . أليس كذلك ؟

ـ لا . . لا . . لا تقسى علىّ يا دادة . . كونى معى صريحة ، ولا يأخذك مأخذ . . فأنا تلك المخلصة ، الباقية

صداقتها على مابقى الدهر . . يهمها مايهمك ويعنيها مايعنيك .. أأمنت بحسن نيتى ؟

قالت بتذلل أقرب إلى الذل منه إلى الانكسار :

— دعينا يا . . من المزح !

— أهذا مزح وقد قلت لاشىء فى الحياة يستوجب الجد والمزح .

ضحكت رحمها الله . وقالت وهى تعانى غربة الحياة :

— وبعد . . أما آن لك أن تسأليني من أودعته عصارة عقلى وخلاصة تجاربى !

أما آن لك أن تسألينى عن موضع آلامى ومستودع أحلامى !

سلى بصراحة عن فتى وهبته قلبى ومهجة كبدى .

سلى فتاة مسكينة تكسرت آمالها على صخرة القدر !

وانحدرت على خديها دمعة بللته ، وكانت تحاول الاستمرار فى الحديث ، ولكنها تجد صعوبة وهى بين آن وآخر تتنهد بسعال جاف يشير إلى مرض كانوا سابقاً يعزونه إلى العشق والهيام .

فغيرت مكانى ، واقتربت نحوها أبادلها عذب الحديث وأهوّن عليها :

ــ أنسيت الله يا أختى ؟

ــ إلام أذكره وقد جفانى فى أعز شىء ، وحتام استغفره وقد آلمنى ؟

ــ هونى عليك .. فالبشر كالغصن الميال إذا هبت ريح .

فراق لها حديثى واستمرت :

ــ ما أسعد من ذاق الراحة ، فأمن عليها وما أشقى من ذاقها فحرمت منه ! !

وإليك الحكاية من أولها :

قبيل وفاة أبي بأيام معدودة عقدت خطوبتي عليه . . .
فحال العزاء دون زواجنا ، وإذا بنا ننتقل من فراق إلى فراق .

قالت ذلك وتأوهت آهة ينخلع لها الفؤاد .

مضت أيام وتبعتها أشهر . وخطيبي يعاني مرضه العضال ولكن - وكم يبدو أسفي شديد للكن - الأقدار تحوم على البعض بجناحيها كالفراشة ، وشاءت لتعاسة الحظ أن تحوم حول رحيقنا لتمتصه !

— أرأيت ما حل به ؟

— ماذا ؟

— مات ضحية السل !

أما أنا . . فبت كالقاسم المشترك الأعظم كلما جاريت الدهر في أحكامه لن أجد عزاء لنفسي إلا الضيم والصعاب ! وأخيراً سأسافر غداً إلى لبنان لأصبح نجمة من نجومها المسلولات . . حبيبتي يا أختي واذكريني وتقبلي وداعي بقبلة تجمع مر الحياة وحلوها .

وما أن خرجت حتى هجم على نفسي طوفان من الدوافع والهواجس الانسانية رأفة بشبابها الزاهر . وطال صمتي ، وأبى منطق الكلام . . ولم يزل صمتي وذهولي يفتش عن كلمة مجهولة لتنوب عن سرّ الحياة الغامض ولحنها التائه ، فإذا بي

أردده لأسمعه وألمسه لأحسه فأعزفه وأجهله ! . . .

ولم تمض مدة على سفرها حتى وافاها الأجل (الذى فى انتظار كل واحد منا فى يومه) وجاءتنى رسالة حوت أمر الذكريات ولا زلت محتفظة بها .

وإنى أريد أن أسأل القارىء الكريم : على عاتق من يقع ظلم هذه المسكينة ؟ ؟

أهو القدر ؟ . . أم الخالق الذى زخرف الطبيعة بحكمته الجبارة فزاد بلاها وعناها ؟ أم سوء طالع البشر ؟ أم أم ماذا ؟

أقول أعوذ بك يارب واستغفرك !

لقد أمنت بأن الأنام دول . . والدهر دولاب . . فكم عزيز قد ذله الزمن . . وكم ذليل قد عزه الزمن . . وكم . . وكم من ملوك كانوا أسطع من النجم فضاعوا وضاعت حتى ذكراهم . .

يا بشر لِمَ الغرور فى هذه الدنيا !

ألا تؤمن بالمعرى ! وقد قال :

فما الدنيا بباقية لحىٍّ

ولا حىٌّ على الدنيا بباق

ألا ليت القدر يعف حين يقسو !

قلبى على طاولة التشريح

أحدثك أيها القارىء بصراحة ، وإن كان الاعتراف بالصراحة فى زمننا هذا يعد جناية !

ومهما يكن من أمر . . فالجنايات عديدة والذنوب كثيرة ومن لم يقترف ذنباً يعاقب عليه فلعله يغرم بجناية قامت بها إحدى الأرواح فتلقاها هفواً وعفوا ...

قد يكون قلبى محكوماً عليه أو معاقباً ولكن جنايته وعقابه . . سلوى . . تجمع الفرح أكثر من الفرح . . تعود على امتهانها . . تبعاً لما أحاطته من ظروف . . فاستنبط من الضيق فرج . . ومن التعاسة سعادة . . كمن يألف نشيداً بغدادياً يردده فى سويعات فراغه . . ولا تنس فكل امرىء على وجه البسيطة . . لن يخلو شعوره من الألم . . والحسرة . . وكما تعلم أن الحياة للقوة . . ومن لا قوة له لا حق له وإن كان صاحب الحق . . وهذه سنن عصر النور والسرعة . . وإلا لماذا سمى بعصر الغرائب والعجائب . . ؟

لذا استعمر عقلى قلبى . . فبت لضعف قلبى وقوة عقلى وسيطرته أتذوق شيئاً من السعادة . . وشيئاً من القناعة . .

أغبط عليهما .. وإليك الفحص الطبي .. (الأدبي والفسيولجي) ولكني أخشى أن يتنافس الطبان الأدبي والفسيولوجي لتفاوت النظرات .. وتباين الآراء .. وما دامت الحياة دار تجمع ما اختلف ، وتقرّب ما تباين .. فأنصت .. وسواء أعددتني مجنونة أو عاقلة .. فلن ولم يعد يهمني ما اتهمتني فيه أو تحاول اتهامي .. فكم من متهمين أبرياء .. وكم من أبرياء متهمين ..

هكذا الحياة تهمة وبراءة .. ولا تنس فإني فتاة .. لا تهمها التهمة ولا تهمها البراءة .. وديعة ورهن وداعتها التجارب .. لا الأقوال الباهتة .. التي تفتقر إلى الأفعال .. !

في سكون الليل البهيج حيث يخيم الظلام على النفوس فتبكي لبكاء الطبيعة وتنحب لنحيبها وأنت تجهل سبب بكائك وبكاءها .. جلست أكتب مناجاة .. أناجي بها سكون الليل .. وهو عنوان كانت قد خصتني به إحدى الصحف البغدادية الغراء ولم أكد أنهيه حتى شعرت عيناي برحمة النوم تخيم عليها بشوق وهي بين يقظة تدنوها للتأمل ، ونفس تدنيها من النوم ! وما هي إلا رهينة همسة حائرة .. وأمل خلاب .. ! وبينما أنا كذلك لم أشعر إلا وروحي تحوم مع أرواح العلماء .. والأدباء وكبار الفلاسفة والعظماء .. تارة تنظر إلى جسدي وترنو إلى الاقتراب منه .. وطوراً تفوز ببعدها .. فوضع جسمي على طاولة

التشريح . . وتناثر الشعر على وجهى ، ويدى لاتقوى رفعه ففتح القفص الصدرى ببطء . . وكان صالون العمليات الكبرى قد هيء للمناقشة . . فهاهم الأطباء . . وملائكة الرحمة . . قد أخذوا أماكنهم . . فأخرج البروفسير المرحوم الدكتور إبراهام . . « بريم » قلبي ووضعه فى وعاء فسيح الجوانب . . . وطرحه جانباً على منضدة هيأتها له رئيسة العمليات . . . وقد خولت الطبيعة ثلاثة من علمائها للتوقيع على محتويات هذا القلب وهم كل من :

المعرى : رئيس الهيئة

شكسبير : نائب الرئيس

بيتهوفن : العضو

الكاتب : (فقيد الشعر والفن) جبران خليل جبران .

يبدأ شكسبير بالحديث :

شكسبير — لولا قابلية هذا القلب لما احتمل هذه الطراوة . . بالرغم من امتقاع لونه . .

بيتهوفن — إن أذنى لا تطاوعنى على السمع . . . فلقد أعيتها طباع (الناس) وحيرتها اصطلاحاتهم الأخلاقية التى يدعونها آداباً اجتماعية إلا بصعوبة . . فاكتب عبارة شكسبير ياجبران . . .

فامتثل جبران للأمر . . وتنـــاول ورقة ليسجل القول . . وما أن وقعت عينا بيتهوفن على الـكلمة حتى أنّ بنغمة الخلود . . وراح كمانه يثلج صدرى . . فنبض قلبى للحن بيتهوفن تأييداً له . . واندفع جبران بخيالاته الشعرية والفنية ، وسـادت فترة سكوت . . والمعرى لا يبدى حراكا . . فقال بعد أن أعياه الوقوف :

ــ تعال يادكتور إبراهام . . وافتح هذا القلب على أن تحترس من مبضعك الحـاد . . فيهفو هفوة تعاقب عليهـا عشرة أجيال لحسن نية هذا القلب . . كما يبدو لنا . . (وإن كنت أعمى) حيث القلوب السـالمة النية الخـالية من اللؤم والحسد . . يندر وجودها . . ويصعب تفسير مكنوناتها .

فتح القلب . . ونظر إليه بإعجاب . . فاذا به (حرف ميم) وصورة قريبة من وجه المعرى . . ولشدة النظر إليه . . ذهل الجميع وصاحوا : يا . . يا للفرح . . ويالله للغبطة . . فذعر الجراح وضغط على رأسه خوفاً على عقله من الهرب . . وكاد ينسى علمه . . فقال المعرى :

ــ علمت مافى قلوبكم ياعلمـاء الطبيعة . . جردوا محور الحياة من سداده . . واقتربوا رويداً رويداً إلى الحرف الذى تعنوه وافعلوا حسب أمرى . .

ففعلوا ما أشار به عليهم ، ولكنهم لم يجدوا ما يدعونه بالميل الروحى .. اللهم سوى دقات متفاوتة ... تشير أبلغ الإشارة إلى تأييد فكرتهم .. وهنا اغتاظ جبران الصريح .. وجرّأته .. ليجادل المعرى .. مع احترامه لفلسفته فاندفع غير آبه لفلسفة ولا مناط بعلم .. فاقترب نحو المعرى قائلا وهو يبتسم :

— سؤال بسيط يارهين المحبسين .. أتسمح ؟

المعرى — تفضل ..

جبران — أتتقبل اقتراحى ؟

المعرى — مع الاحترام ..

جبران — وأنت ياشكسبير ؟

شكسبير — أؤيد اقتراحك ..

جبران — ما رأيك .. يابيتهوفن .. ؟

بيتهوفن — أراك سكيراً بخيال الطبيعة ياجبران .. ألم أقل لك .. لا أفهم الإشارات .. إن أذنى لا تعيننى على السمع .. اكتب هذه العبارة ياجبران ..

جبران — أجل .. اقرأ ..

بيتهوفن — لامانع لدى .. طالما جمعتنا وليمة أنس وطرب .

جبران — إن الصداقة الروحية لتنعدم عند المجادلات ..

حتى لو كان ارتباطها لحم ودم . . . إذاً وقعوا على اقتراحى للمعرى . . فإنى أهابه وأحترم علمه وفلسفته . .

(وقّع الجميع)

ـ اقترب ياأستاذنا المعرى . . واشرع قلمك للتجربة . .

ففعل وراح يدنو كما أمره جبران . . فالتصق القلم بحيث تعذر على هؤلاء سحبه . . إلابهمسة فلسفية قالها المعرى ! فضج الفقهاء . . وتهامسوا على ميل هذه الروح واعتقادها بآراء المعرى . . والمعرى ساكت . . لا ينبس ببنت شفة . . وهو (بجبة) المحاماة . . فصاح قائلا :

ـ أيها الزملاء . . أيها الإخوان . . حدثوا ولا حرج . . فلا يعنينى ضجيجكم ، فلى رأيى ولكم رأيكم .

فالتمسوا بأنهم وإياه على مزح . . دفعهم خيالهم إلى ماظعنوا حتى إذا أغضبته حدتهم فالمعذرة . . فتابع قوله :

ـ إن خيالكم أحياناً جناية على نفوسكم . . . حيث تصورتم للميل الروحى . . إنه حرف (ميم) . . وبعبارة أخرى . . إذا تمادت حدقة الرؤية خيالا

يندفع المرء . . وراءها كالفرس الأصيل . . فيتصور حسب ما حدا به الخيال .

إذاً فالميل الروحى . . الذى تطبعه مدية الطبيعة على صميم القلب لهو البلسم الشافى ليقنعكم على أن الفتاة عاشقة على . . وراثية لظلمى . . فهامت به . . ولا غرو من إعجابكم . . حيث الفتاة لو عاشت فى عصرى . . لهب الناس ودب من كل صوب وحدب . . لا لعشق يتهمونني به . . بل ليمضوا وقتاً يتحسسون بعبثه . فيالبئس حظى التعيس . . ما ضر الزمن لو رجع بفتاة الإنسانية إلى الوراء . . أو لقربنى إليها فى هذا العصر . . فهى الوحيدة التى شعرت بأنى فى حاجة إلى من يكتب لى سطراً . . أو يقدم لى فنجاناً من القهوة . . فرثتنى ميتاً فاتهمتموها لرثائى .

وهنا دمعت عينى المعرى . . فكفكفها بيتهوفن . . وراح عميد العقل . . يضرب مثلا تلو مثل . . وعبرة وراء عبرة . . وبرهاناً بعد برهان . . وهو ينشد :

لا تذكروا الموتى بسوء إننى
أخشى عليكم فى الردى أن تلتقوا

فلحن بيتهوفن هذا البيت وأنشده . . (باللغة الإنكليزية) فأطربوا الجميع وأنا معهم . . وهكذا أعيد قلبى إلى مكانه بعد براءته . . أما الروح فكانت معلقة . . سابحة مع طيور العلماء . .

فنبهها المعرى ورجاها بالرجوع حتى يحن طيرانها . . فصاحت المعرى . . وهى تقول :

إليك يامثلى الأعلى . . آهة أبعثها من بغداد . . هذا البلد الذى أحببته . . فلعل الذين واللائى ظلموك حياً ينصفوك وأنت ميتاً .

فودعته وأنا أقول : كيف أودعك يا مثلى الأعلى وقد علمتنى المجد خلقا . .

فيا أيها المظلوم حياً وميتاً لاتيأس . . فلقد جاءتك عبدتك تحييك من بغداد . . وحسب الذين واللائى يظلموك بتحية فى كل رثاء . .

فانتبهت من نومى . . وأنا أمسح قطرات العرق التى تصببت فوق جبينى . . من أثر الرؤية .

ألا ليت الأحلام تتحقق . . فنسبح مع هؤلاء . . فى جو الشعر والأدب ! .

ترى من هى .. ؟

[عرفوها لغزاً فأنصفوها]

سبحان الخالق .. فلقد خلقها وصورها فى أحسن صورة ، وصبها فى قالب الجمال والجلال ، ثم زخرفها وبالغ فى فتنتها حتى جعلها تحفة من التحف الربانية ، وآية من آيات البدع والإبداع والروعة والكمال .. فتحسبها إذا نظرتها وصافحتها .. أنها (شيطان ملاك) .. طاهر .. هرب من الجنة بثياب البشر !!

ترى من هى ؟؟

هى التى عاكستك فجعلت ليلك نهاراً ونهارك ليلا واقفة بالمرصاد .. دائبة فى صعود وهبوط متناهيين .. فصعودها ألم ، وهبوطها ضنى . فإذا أقدمت ضعيف .. وإذا تقهقرت ضعيف .. فلا تغرنك .. فهى نبع الألم .. وأساس الضنى .. ومصدر البلاء والعناء .

ترى من هى ؟؟

هى التى استطارت بقلبك الضعيف من عالم الحزن واليأس إلى عالم الفرح والمتعة ، فجعلتها صديقاً وفياً ، وحسبتها حبيباً مخلصاً ، وتصورتها أماً رؤوم ، فأودعتها حسن ظنك

واستضعفتها واستغلتها .. فقلبت نعمتك نقمة .. فمضتك الآهة ، وحزتك الحسرة ، وأنت لا تدرى أخلقت من مادة شيطانية ؟ أم من مادة إنسانية ؟

ترى من هى ؟ ؟

هى التى جعلت حديثك حلو .. وقلبك طاهر .. وذيلك عفوف ، ونفسك أبية ، ومجدك خلقك . يتمناك الأصدقاء .. ويترقبك الأعداء .. ويتلهف لشوقك بوجودها .. الأمناء والأنبياء !.

يا ترى من هى ؟ ..

هى التى أخطأت حظك ، وتجاوزت نعمتك ، وقضت عليك بعد هذا وذاك أن تعيش شقياً تتقاذفك الآهات . وتتعاصرك اللوعات .. لا تعمد إلى عمل من الأعمال إلا وأدركك الإخفاق ، ولا تنهض إلى أمل من الآمال ، إلا وأثقلك الفشل . فتنهض ، وأنت تتعثر فى خطواتك .. فلا تستطيع النهوض ولا تقاوم القعود .

يا ترى من هى ؟ ..

هى .. هى .. التى جعلتك مستغرقاً وذاهلا .. فى فنون الاستغراق تضحك ، وفى قلبك الهم .. وتبكى فتتجاوب بين

ثنايا فؤادك نغم يشير إشارة صريحة إلى ما تعانيه نفسك فيها .. فإذا سيجارتك سكر .. وجرعة كأسك ثمل ...

ترى من هى ؟ ..

هى التى جعلت مدامعك وابتساماتك كأس ندمانك وحرمانك ، فطوراً تبدو دمعة فتكفر .. وطوراً ابتسامة فتغفر ، وطوراً تجمع الدمعة والابتسامة وهى فى كل طور من الأطوار .. دموعك هاملات .. وحسراتك متناثرات .. وعيونك تائهات ..!

ترى من هى ؟ ..

هى التى قاسيت منها آلامك ، وكابدت حرمانك .. وعانيت أحداث زمانك ، فلقيت فيها أفراحك .. وفيها أتراحك .. وفيها حيرتك ...

ترى من هى ؟ ..

هى التى جعلت لياليك طرب .. وأيامك عذاب .. وأمانيك غناء .. وآمالك خضراء .. فلاعبتك واستضعفتك وجمعتك وفرّقتك ..

ترى من هى ؟ ..

ترى من هى ؟ ؟ . هى المرأة

هى التى قست فأشقت . . وضنت فأحلت . . .

ترى من هى . . ؟

هى . . تجمع البخل والإحسان . . والقسوة والحنان . . والتمتع والحرمان . . والعدل والبهتان . . .

ترى من هى . . ؟

وأخيراً . . هى التى آمنت بك وأذعنت لمشيئتك فهتفت بحياتك لأنك الحياة . . فقذفتها كالكرة . . وقضت عليك . . فحبتك وأحيتك . . وكرهتك فأماتتك . . . ! !

ترى من هى . . ؟

يا أخى هى المرأة . . فحذار . . حذار منها . . فلا خير فيها سواء أكانت شيطان أم ملاك ! ! . . .

قلب ♥ ينفجر !!

ترى ماالذى دعاها لتحدثنى .. أهى الدمعـــة ؟ أم الإبتسامة ؟ ومهما يكن فللحياة مواقف غريبة يحتار البشر ليقود دليله إليها .. فطوراً تبدو أمامه دمعة فتهتز عواطفه .. وطوراً تبدو ابتسامة فتهدأ نفسه الثائرة .. وطوراً تبدو بشكلها الحقيقى فتجمع الدمعة والابتسامة .

وفتاتى التى سردت علىّ هذه القصة فى استطاعتها أن تمثل دمعة الحياة وابتسامتها معاً .. فتخالها إذا حدثتك وجاذبتها أطراف الحديث .. ما أنت إلا أمام كأس ندمائك تتجرع دمعة إثر دمعة ، وابتسامة إثر ابتسامة ، لا لكونها دمعة ... ولا لكونها ابتسامة ، بل لكونها بين بين فى دمعتها وابتسامتها . وسواء أكانت هذه القصة نموذجاً مصغراً أو مكبراً .. فالمنظار منظارك .. لامنظار فتاة الإنسانية التى حدثتنى بالقصة كما يلى :

المشهد هو :.. غرفة فى الدرجة الثانية فى المستشفى الملكى بها سريران شغل أحدهما شاب وسيم الطلعة كلفنى الطبيب بعنايته .. مريض .. أبت الأقدار أن تمنحه كأس

الراحة والهناءة .. فانفجر قلبه على أثر سهم الهوى ، فتخلص ، أو اعتقد أنه سيتخلص من ويلات ضعفه بجرعة سم زعاف .. إلا أن بغيته طالت .. ومعالجته استوجبت بعض الانتباه والدقة . وكنت إذ ذاك حديثة العهد .. بالفن الإنسانى وأصول مداراته .. ولشد ما كان الميت يخيفنى .. فنى كل حركة من حركات المريض .. أتأوه كأنى أقاسى الألم .. ولا ألبث أن أقوى عزيمتى بهذه العبارة وأكررها هو أن التمريض مهنة إنسانية خالدة .. ومالى ولهذه التضحية إذا تقاذفتنى آهاتها وأناتها .. دعينا يا آنسة من هذه المسألة .. فلها حديث خاص أضيق بسرده الآن .

فانصت لما حدثتنى به فتاة الإنسانية حيث استطردت :

— وبعد أربع ساعات فتح المريض عينيه باحثاً عن شخص يرجونى ويستعطفنى أن أبدى ما فى وسعى للعثور عليه .. فرفعت بصرى يميناً وشمالا . أعلى وأسفل .. لأفتش عن شىء علنى أهتدى إليه .. حتى تحت الأسرة .. ولما لم أجد بد اقتربت نحو الفتى وبابتسامة خفيفة وبكل لطف وحنان فكأنى الوحيدة التى مسه عطفها وحنانها ..

وهنا استعادت الفتاة أنفاسها بشهيق خلتها ستتكتمه طويلا :

ـ بدأ . . بدأ يهذى بنوبة عصبية قريبة من الذهول والاستغراق . . وصاح بخشونة :

ـ وداد . . حبيبتى وداد . . إلى أين . . إلى أين تريدين أن تذهبى . . أنا ذاهب . . هل أنا جانى . . فأرينى جنايتى . . ياوداد . .

وأخذ يئن على الفراش فأقترب منه وأهدئه بعبارة رقيقة :

ـ استغفر ربك . . إن الله مع المساكين . .

ولئن ذهل واستغرق مرة . . فلقد أذهلنى خوفاً واستغراقاً مرات . . فخشيت أن يلاحظ استغرابى وخوفى . . فبدأت أكلم نفسى بنفسى لكى أبعد عنه الشك . . ترى من هى وداد . . ؟ وما شأن هذا المسكين منها ؟ وما شأنها منه ؟ أخطيبته . . ؟ أحبيبته . . ؟ أزوجته . . ! . . ! . . الخ .

وبين خوفى المخيم على نفسى واستمرارى به ، وإذا بكف المريض تعلو جبينه فيقذف بها كالحجر فخلتها سقطت علىّ لاعليه . . فارتعد . . وعاوده الاضطراب النفسانى فصاح :

ـ أيتها القاسية ! لا ترحمين قلبى المتفجر . . أأنت عونى ؟ أم فرعونى . . ؟ ابتعدى عنى . . فلا أريد النظر إلى وجوهكن يافتيات حواء .

فوجمت صامتة وهمست : ماذا به ؟ وتصورت كأننى المجرمة . . فسألت الطبيب المسئول . . فأخبرنى أنه قيد الخطر طيلة ثلاثة أيام . . فقط امنعى عنه الزيارة بالمرة . .

فأشحت بوجهى وأنا أختلس النظرات . . ووداد أيها الطبيب . . إنه لا ينفك عن ترديد اسمها . . فى كل لحظة . . أأمنعها وهو مشرف على النهاية . . فأجابنى بحدة خلته هارون الرشيد . . فى ساعة غضبه :

— هذا شغلك . . والا شغلى ؟ .

فاغرورقت عيناى بالدموع وتحاملت الجواب عليه بكلمة أدبية فلقد أثرت خشونته على شعورى فلعنته باطناً .. وأجبت بهدوء :

ـ والله لا شغلى ولا شغلك ولكن شغل القدر الخائن الذى جعل بعض البشر تحت رحمتنا . . والمرء ياطبيب الإنسانية وكما تعلم ونعلم يحيا بانسانيته ، والإنسانية نفسها إذا رأت الناس يتكلفون بها . . فلا تود تسجيلهم فى دفترها الخاص . . وعليه فلا خير فى إنسانية يتصنع لأدائها البعض . . ويدعون أنهم من أحفادها . . فكلمانه يافتى الإنسانية تثير حتى القلوب التى قدت من صخر . . فقاطعنى . . فقلت : دعنى أكمل .

ـ ولحداثة عهدى بالفن المثير للشعور الإنسانى كان الأجدر بك أن تعذرنى . . لاتقابلنى بتلك الخشونة الجافة . . التى لاتليق بالرابطة الإنسانية . . أن تتقبلها !! .

فكشر عن ابتسامة واعتذر . . وهو يهدئنى . . (وهاهم ياقارئى العزيز معظم الأطباء لاسيما فى الشرق يتصورون كمن كن يتغذين على فتات مائدتهم . . وهم فى وصفهم الجازم . . يتمنون لو تضاهى الممرضة الشرقية أختها فى الغرب) وهنا

تنفست فتاة الإنسانية الصعداء .. ولم تلبث حتى تابعت القول :

ـ قال الطبيب افعلي ما تشائين مع وداد .. واحرصي على تهدئته ..

فاستطردت الآنسة فرحة ، وكأنى أصبحت صاحبة الأمر .. والنهى .. إذاً سأراعى مريضى أولا .. وسأتتبع القصة ثانياً فاهتديت إلى حل واحد .. به أستطيع منع الزيارة فلأضع ورقة أكتب فوقها .. كما هو المعتاد .. لبعض المرضى المحظورين .. وغير المحظورين قصد الراحة (الدخول ممنوع بأمر الجراح الاخصائى) ولم أنته من وضع أمرى الذى اخترته وإذا أنا بفتاة مقنعة (ترتدى عباءة) تجر أقدامها .. كسكير أثمله الألم .. فناح تحت عبئه الثقيل .. تتقدم فتحيينى بلهجة فيها شيء من الاستعطاف والالتياع .. وسألتها :

ـ من أنت ؟ .

ـ أنا .. أنا وداد .

قالت اسمها .. وأطبقت رأسها على الورقة التى قرأتها .. ثم رفعته ثانية بدموعها الهاملات .. تلتمسنى الدخول .. فعطفت عليها .. لمرآها الحزين .. وقلت :

— إنها ليست لك . . بل لغيرك . . فادخلى . . أدخلى بسلام وهدوء . . وحذار من مفاجأته .

(وهنا منظر له تأثير على الشعور الفياضة) . . تقف وداد وراء الستار . . والمريض يتقلب . . شيئاً فشيئاً . . يهذى . . أريد ماء . . فأسعفه بالطلب حالا . . فينادى . . ويكرر نداءه : وداد . . وداد . .

— ستأتى قريباً . . ورجائى إليك أن لا تكلف نفسك أى طاقة . .

فالتمسنى إلى الجلوس بجانبه وراح يسرد علىّ قصة انتحاره . . ومهما حاولت يا آنستى فى أن أمنعه فلقد أحاول المستحيل . . فإذا محاولتى تزيده ألماً . . فتركته كما يهوى . . فتأوه وهو يقول :

— مات . . أبى وأمى . . ولم أذكر من خيالهما شيئاً . . فتعهد بتربيتى عمى . . فما شعرت بيتم كيتمى فى هذه الساعة . . (ودمعت عيناه . . فمسحتهما كما هو أصول الفن الإنسانى . .) وما أن واصلت دور الشباب . . وإذا بى قبالة طير ألفت نغمته وألف هو الآخر . . وتمادى التآلف بيننا حتى انتهى بنا إلى الحب المتين . . فحافظنا على ما يجب المحافظة عليه . . حتى يحين الوقت . . إذاً مالى خائف . . الأمر بسيط . . فلأطلب يدها . . ولأفصح لأبيها بكل ما يعتلج فى نفسى

الضعيفة تجاه الهوى . . فى الوقت الذى شجعنى عمى وزوجه وفتحوا بيتهم تحت تصرفى فتسرعت . . وكان بوسعى الهرب مع الفتاة . . وكم كنت آسف . . حين أفضيت لوالدها بحبى فأجابنى بطرق الاعتذار . . زاعماً أنه لازال يضمر لى المودة براً بصداقة والدى . . وكم يبدو أسفه شديد وعظيم حيث العادة المتبعة عند المسلمين . . هو أن ابن العم مقدم . . وفى استطاعته أن يجر بضفير ابنة عمه . . فكرر أسفه . . بعد أن وضح لى الحق . . فودعته وداع خائب مستميت دفنت آماله وهو على قيد الحياة . . فبات لاهو بالحى ولاهو بالميت فشعرت ياأختاه بأرض حقيقتى . . هباء . . فلا عثوراً على الأرض ولا التماساً إلى السماء . . طير غريب . . أشكو وطنى وداد . . تلك التى حرمتنى منها الشريعة . . فلتعيشى ياوداد . . مع ابن عمك . . ولأشق فمن ديدنى الشقاء مذ تخلى عنى أبواى .

واستمرت فتاة الانسانية قائلة :

— وهنا انتفض المريض . . وهمّ أن يقوم من محله فأمسكته بلطف . . فصرخ دامع العين : وداد . . وداد . . أنا ضحية إخلاصك . . لله ما أقساك .

فخرجت وداد من وراء الستار قائلة وبنوبة لاشعورية : لا . . لا . . طاوعتك لأهرب فقادك احترام أبى إلى التضحية

بنفسك . . إلى أين تريد أن تذهب وتدعنى ، إلى عالم الحرية . . ؟ وهكذا ارتمت فوق ذلك الجسم تقبله بشوق ولهف ، فخشيت أن أبعدها عنه فأخدش شعورها وهو مشرف على النهاية لا محالة ، وخشيت أن أفسح لها المجال فيتكلف المريض ويضطرب وهذا مناف لتلبية الأوامر . . فاقتربت نحوها فى شىء من الحيرة والخجل :

ـ كنى ياوداد . . حافظى على تهدئته .

وناديت خادم الإنسانية . . وكلفته بحسن المداراة .

وانصرفت إلى المدرسة تهزنى دمعة الحياة فألفيت الطالبات منتشرن هنا وهناك . . كطيور الجنة ، وعبثاً حاولت أن أتذوق ولو كسيرة خبز . . فقد تخمت من أكلة أحتاج لهضمها أياماً طوال واستعادت نظرى ذهولها واستغراقها . . ولم أنتبه إلا وقدح الشاى مائلا فبلل المائدة والأسئلة توجه إلىّ ضمن الإغراق فى الضحك :

ـ عظيم . . بماذا تفكرين يا فتاة الانسانية ؟ .

ـ فيكن ياطيور الجنة .

ـ ألست طيراً مثلنا ؟

ـ بلى والله ! ولكن أختلف عنكن لتغريدى لحن القلوب الكسيرة .

— (دون مزح) . بالله عليك خبرينا بماذا كنت تفكرين ؟

— أفكر . . ياعزيزاتى ، فى الكون ، فى الطبيعة . . فى الحياة ، فى ضجيجكن ، فى السمر فيكن ، والبيض منكن ، وماذا تريدننى أن أفكر أكثر من هذا . . ؟

وهممت أن أنصرف فوقفن حيالى واعترضن طريق والتمسنى أن أفضى إليهن بالقصة . . فرجوتهن أن يتركن إعجابهن بالحديث ريثما أعود ثانية فإنى فى حاجة ماسة إلى مريض كلفت بعنايته . . ومصيبته مصيبة الطالبات إذا أعجبن بطالبة فنى كل لفتة من لفتاتهن تشير إلى وضعية الطفل الغرير الذى يؤنسه مداعبة مايرضيه ليؤذى غيره . . فلو قيل ، وهذا أبسط مثل :

« إن المجانين أناس يسيرون على رؤوسهم بدل أقدامهم » وسرعان ما هرعن زرافات ووحداناً إلى دار الشفاء تجر الواحدة يدها بالأخرى ليتأكدن من صحة القول ، وهذا ماجعلنى أحترس مخالطتهن فاتهمنى بالغرور والكبرياء . . فعذرت الأطفال ومالى سوى العذر والسماح .

فساد بيننا الصمت وقت غير قصير حتى استأنفت الحديث :

ـ وما أن رجعت إلى واجبي لأرى ما حلّ بوداد وصاحبها فإذا الثانى سطر فى سجل الفناء .. فحزنت على مرآه ورثيت لحاله . ووداد المسكينة تقول له : انتظرنى يامخلصى فسألتحق قريباً بك . وبعد أيام طرق سمعى بأنها انتحرت بأن وضعت يدها على زر الكهرباء، لا أدرى أكان سهواً أم تعمداً .. وهذا نموذج ثانى لقلب ينفجر ..

وما أن انتهت فتاة الانسانية من حديثها حتى شكرتها .. على فعلها الجميل .. تهزنى دمعة الحياة قبل ابتسامتها ..

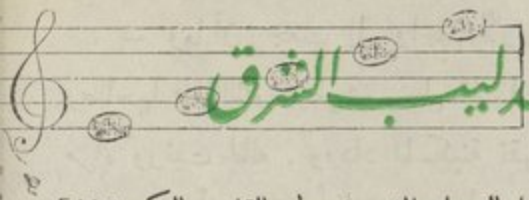

[إلى البلبل الصداح الذى يغنى لحن القلوب الكبيرة !!]

لا النسيم البليل أنعشنى ، ولا الأمل بالشفاء أبهجنى ، ولا جمال الطبيعة أشجانى ، ولا ماء دجلة العذب أروانى ، ولا مرأى البلاد فى كبد السماء أسكرنى ، ولا أنس الرفاق لذنى .. ولكن .. أنغامك يا عندليبى أثلجت صدرى وشنفت سمعى .. وهزت أوتار قلبى من الجمود إلى الحركة .. ومن الرقود إلى اليقظة .. أتدرى لماذا .. ؟ لأنك سجين .. !! فأنت يا عندليبى سجين .. تشكو عذاب السجن وحرمان الحرية .. وترنو إلى عالمك الفسيح بعينيك الحائرتين اللتين تنطق بالألغاز .. لتتحرى دقائق الأمور .. وأنا .. مثلك أعانى سجن الحياة .. ومرارة العيش .. وأتجرع كؤوس الألم حتى الثمالة . فكأنك بتغريدك ماسكا كؤوس العذاب تسقينيها واحداً يلى الآخر .. لا قيمة للحياة .. غرد .. غرد ما شئت لا كما شئت أنا .. وابعث من صوتك الحنون .. سراً وإن كان غامضاً .. فهو قيمة الحياة ...

غرد .. غرد .. يا عندليب الشرق .. وابعث لى بأنغامك

الشجية الرائعة العجيبة فعساها تروى جوانحى وجوانحك . . وتروى شوقى وشوقك . . وتخفف لواعجى ولواعجك . . الدفينة وخامرتنى الصور . . فإذا عندليبى ينتفض انتفاضة الملل . . فلقد سئم السجن . . فيحاول الهروب من قفصه الذهبى . . فيكسر بجناحيه الصغيرتين باب القفص لا أدرى . . أيحاول الهرب من سجنه والافلات من قيوده ليفتش عن عالم غير هذا العالم . . وجواً غير هذا الجو . . ؟ أم يعزف بها على قضبان القفص إجابة لتغريده ؟ ؟ .

غرد . . غرد . . واطربنى بتغريدك . . فأنا فى حاجة إليه ولعنة الله علىّ إن كنت سبب سجنك . . وتعاستك . . على مهلك . . على رسلك . . فسأطلق سراحك . . أما إذا أعتقتك يد رحيمة وحاولت أن تنشد أنغام الحرية فتذكرنى وتذكر أننى أخاك . . أهفو للقياك . . وأصبو لمساعدتك فى تحقيق أحلامك . . وأمانيك العذاب . . ولا تنس فتاة إنسانية . . أطلقت سراحك .

فاذهب فى حراسة الرحمن . . ولا تنسانى .

ترى من هذا العندليب ؟ . . .

الجارية الحسناء

[إلى التى لا تباع ولا تشترى . . .]

لتحى الحسناء . . فلها الحياة . . أمس وغد . . .

فبالحياة تحيا . . وبالحياة تموت . . طالما مناها الله بالعلا وتعالى الهتاف عالياً مدوياً . . فدهشت واستغربت . . الله . . الله ماذا أسمع . . هتاف بحياة غادة حسناء . . فهرع الأغنياء والفقراء . . لمشاهدة هذه الدعوة التى ستأتى إليها الجارية . . نخلت نفسى فى عهد الخليفة هارون الرشيد . . وما قبله وبعده فى بيع وشراء الجوارى . . ومن الجدير بالذكر هو أن الحفلة أقيمت لمنفعة الجنس البشرى . . يا له من يوم نحتت ذكراه على شغاف قلبى . . فقدت نفسى وأنا أتحامل أعصابى المضطربة من أثر ماقرأت . . فى الفصول والغايات . . فقادتنى الأشباح لمساهمة هؤلاء الناس فما بالى وللعزلة . . ؟ ألست بشراً . . ؟ فكنت ترى الناس زرافات ووحدانا لم يمهلوا أنفسهم بتكملة وجبة الإفطار التى اعتادوها يومياً . . فإذا بنفوسنا فى إحدى الساحات العالمية الكبرى التى باتت تهدد الكيان البشرى من أقصاه إلى أدناه . . بالفناء . من أين تجمعوا هؤلاء الناس

الآف . . ملايين . . وهنا تقدمت الجارية الحسناء . . تجر أذيالها تكبراً وتجبراً . . أين الشعراء . . والأدباء . . هذه الأعطاف المنثنية ، يا لبتهوفن فهذى عيناى تفتش عنه ليوقع لحن الحياة التائه ، فاقتربت الجارية محمولة على جوادها الأصيل وها هى تنزل من فوقه ، ممسكة اللجام ، بإحدى يديها ، فحيت الجموع الغفيرة بابتسامة ، ساحرة بجمالها ، ساحرة بجلالها ، ساحرة برقتها وعواطفها ، ولكنها ابتسامة قاسية ، تجمع منتهى الرقة والقسوة ، تحول جحيم الحياة نعيما ونعيمها جحيم . فأومات للجموع المحتشدة بالسكوت حتى نبضات القلب ،

برفع يدها ، فمدتها إلى صدرها ، وأخرجت ورقة ، ونادت بصوتها الملائكى :

« أين المسؤولون عن قيادة هذا العالم . ؟ »

هيا اصرفوا هذا (الشيك) . فأخذوه من يدها ، وما أن وقعت عيونهم الشاخصة على محتوياته ، حتى بشروا بالإفلاس . فأعادت تبتسم ساخرة : « أين ، أين الذين باتوا يهددون العالم المسكين بقوته المالية . ؟ أين الذين عزتهم مكانتهم العالمية ؟ . ألا يوجد أحداً يحولنى على بنك أدبى . ؟ » . فالكل سكوت ، إلا بعض الهمسات الطفيفة تتجاوب مع الفضاء ، فهزت الجارية الحسناء رأسها ، ساخرة منهم ، قاطبة حاجبيها ، فثار المنافقون ، وتخاذلوا أمام هذه الفتاة ، ولم يلبثوا أن صاحوا : « يا للهازئة ، أقتلوها ، جردوها من العظمة ، مزقوا ثيابها ، إلعنوها ، لقد استخفت بعقولنا » . وما أن سمعت الحسناء كلمة اقتلوها ، حتى امتطت فرسها الأصيل وسارت فى الفضاء ، تاركة هذه الورقة عزاءاً وحيداً للبشرية الساخطة عليها .

أنا الأخلاق ، جئتكم فى هيئة جارية ، لأمتحن نفوسكم وعقولكم . والآن ، وبعد أن لمست روحيتكم تجاهى قتلا لا بركة . . فواخيبتكم ويا فجيعتكم .

فانتبهت مذعورة خائفة ، وإذا بشموس الضحى تلفح وجهى ، وإذا خطر الحرب بات يهدد جو الأدباء والشعراء فتقطع نياط قلبى وأنا أقول :

« يا ويلتنا ، وياخيبتنا ، أما كفتنا الحروب هلعة واضطراب ؟ »

القـــدر ...!

قالت بعد أن رفعت سماعة التليفون إلى أذنها :

يانفس إذا مات الحبيب ففى البقـــاء لاتطمعى

فاستعذبت صوتها الملائكى ورمت لو تنفق حياتها كصاحبة العصمة لما فى حنجرتها من رخامة ؟ .

ـ كيف صحتك . . يا . . ؟

ـ بخير .

ـ أرجو أن تكون كذلك دواماً . .

ـ شكراً . . من المتكلمة . . رجاء . . واعطنى اسم مستعار . .

ـ عزيزتى . . مهما يكن تحوير فى الأسماء . وتبديل فى الألقاب . . فلى أذن تسمع . . طيب أأمرى .

ـ أستغفر الله .

ـ أستميحك عذراً . . يا آنسة أو سيدة (عفواً) فليس فى مقدورى ووقتى قصير ، وكما تعلمين أننى المنكبة على أصدقائى الكتب النافعة بقية شيخوختى . . فى مطالعة ما يغذينى من الأرواح . . فلن أستمع لحديثك . . وأنت حرسك الله مازحة ، فالمعذرة . وأغلقت التليفون فى وجهها .

ولم تلبث فوراً حتى أعادت فتحه :

ـ تزعمين أنك فتاة الإنسانية ؟

ـ لاإنسانية فى عصر سربله الجهل وعمه الغباء . . وإن كان عصر النور والسرعة !

فراحت تلتمسنى بأعذب الكلمات أن لا أغلق السماعة فى وجهها . فاعتذرت لخشونتى معها مبدئياً ، وأخذت تسرد تربية فتاة ، سبقتها بكلمات يقشعر الجسم منها ، لا لشىء يستوجب ، بل لغيرة وحسد ، وتابعت حديثى : المفروض يافتاة حواء أن أتطبع باللين والملاطفة ، تبعاً لتقاليدنا الموروثة عن أمنا حواء لا أبانا آدم ، وكفى شرفاً كما عرفونا الجنس الخشن .

ضحكت ، وقالت :

ـ سؤال بسيط !

ـ ما أبسط أمور الحياة .

ـ ما رأيك فى فتاة ألبسها الزمن رداء أسود مفعم بالحوادث .

ـ كان الله فى عونك ، ماذا أقول أكثر من ذلك . . يا . . أتجدين سهولة فى الإفضاء ؟!

— وآه لولا السهولة لما كانت الصعوبة ، ولولا الصعوبة لما استوجبت السهولة . . آه من الدهر .

فأجبتها :

— أقسم بالله ، مادمعت عينى على بشر صغير أو كبير ، رفيعاً أو وضيعا ، غنياً أو فقيراً ، إلا والآهة بين شفتيه إما ينطق بها جهراً أو سراً ، وأخذت أضرب لها أمثالا تقنع السامع سواء أكان تلميذاً فى الحياة أو أستاذاً ، فعجبت لحديثى وتأوهت ثانية ، وهى تقول :

— شاء الزمن أن يجمعنى بشاب لطيف وجميل ، وتذوب لأجل عينيه الهياكل والتماثيل ؟

— رائع ، جميل جداً وصفك .

— دعينى أكمل . .

— لك ما تشائين . .

— شاءت الأيام أن تغدق علىّ حنيناً لم تمهلنى التمتع فى عطفها سوى أيام قلائل ، وسرعان ماقبضت كفها الشحيح وعصرته ، وجرياً على عادته الصباحية ، خرج متنزهاً للصيد ، ولم يلبث أن عاد بعد ساعتين على ظهر جواده الأمين مترنحاً مخضباً ، بدمه البرىء ، على أثر هدف تائه صوبته إليه

بندقية القدر ، فبقى أيام قلائل حتى وافاه الأجل ، وعاجلته المنية ، فاستشهد ، تلك يا أختى مصيبتى !

ـ هونى هونى ، فالحياة ، صدقينى ، ما هى إلا ألم يتبعه ألم وحسرة تليها حسرة ، ومامن دار ، إلا وحوى على الأقل مصيبة . أأمرينى بخدمة فلعلى أحاول عنك الترفيه .

ـ لاتحرمينى صلتك التليفونية .

ـ لك ما تريدين !

وأعطتنى عنوانها الكامل ، وبت على صلة ، بها ، وكنت أعاملها معاملة أخت حنون قسى عليها الدهر ، وكثيراً ما قسى على بعض الناس !!

فأردفت :

ـ ولا تنسى ، صديق !

ـ صديقك ؟ (بعجب واستغراب) أى صديق هذا الذى تدعينه ؟ .

(ورحت مندفعة بخيالاتى الشرقية) :

ـ هو صديق مخلص ، وفى ، سيصلنى بطريقة سلمية إلى مصافحة زوجى !

ـ ما اسمه .. رجاء (قصد المداعبة) .

ـ آه ، اسمه ، كأس ، وفعله ندمان .

— أتقصدين المشروب ؟ . .

— نعم ! . .

— لا ، لا ، استغفرى ربك ، وتعوذى الشيطان ، فقلوب الرجال لا تتحمل المشروب ، فكيف بقلب المرأة ! . .

وأظنها احتست جرعة .

— إنه أقوى من الصخر .

— لا ، لا . إنك تغالين فى قوته ما أظنه إلا أرق من النسيم .

— أدعو لك السعادة ، وتصبحى على خير .

ولم أزل على اتصالها التليفونى التى عودتنى سماعه ، طوراً شاكية وأخرى شاربة نادبة ، حتى ضعف جسمها وانتابها الهزال ، فمرت أيام وتبعتها أشهر ، وأنا أسعفها بحديثى ، فكان دواءها الوحيد ، وسلوتها الباقية .

وفى يوم ما كان كأس الندامة قد فعل فعله واستوفى خياله بعد حقه ، شعرت بضيق نفسانى شديد ، فأداروا أهلها لها سماعة التليفون كما رغبت وظنوا المنادى حبيب مجهول اعتادت مخابرته دواماً ، وسرعان ما جاءهم صوتى ، فبرروا موقفها ، وهى مترنحة من المشروب النفسانى .

وهكذا فاضت روحها ، ويدها على سماعة التليفون مطبقة تتمتم :

يانفس إذا مات الحبيب ففى البقـــاء لا تطمعى

ليت شعرى ! . . متى تنتهى بندقية القدر من طلقاتها على بنى آدم وحواء ؟

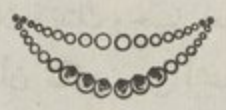

من مآسى البشرية !!

والله لا أدرى أيًّا من القلوب يستديم عليها البقاء ؟ .

ألكونها بيضاء نقية طاهرة حتى (ليخيل إليك أنك لو وزعت ما تحويها من جميل وعطف على الناس لما بقيت فى الدنيا أى عداوة أو خصام ؟ .

أم لكونها سوداء دنسة تسربلت بثوب يحاكى الليل العاج بالأتربة والرياح ؟ .

أو لكونها ، بين بين من سواد الليل وبياض النهار ؟ .

أخشى أن أحدثك وأنت من أصحاب القلوب الأولى ، فأخاف عليك ! لسلامة نيتك وحسن فعلك ورفعة خلقك .

وأخشى أيضاً أن تكون من أصحاب القلوب الثانية فتحمل كيساً من الفيض علىّ لتجاوزى حقك باعترافى ! وأخشى كذلك ، أن تكون بَيْنَ بَيْنٍ من القلوب البيضاء والسوداء ، فتتحسس بسم نفسانى يسرى بين مضامين فؤادك ، كما يسرى سم الأفعى فى الجسد ، لأنك قمت بألف حسنة وسيئة واحدة ، فسيئتك وألف حسنتك لا شىء .

ولئن أردت الإيضاح أيها القارىء فانصت لهذه القصة .

خطرات نفسى سرت فأعجبنى عنوان (قلب ينفجر) على أثر قصيدة كتبتها شاعرة عراقية ، وكانت بعنوان (قبر ينفجر) ، فملت أبيات القصيدة فلقد حملتنى ضيق فوق ضيق وما أن انتهيت من قصة (قلب ينفجر) والتى يتلهف القارىء على عنوان كهذا ، حتى قادتنى صورة منظر مؤلم ، لعندليب يحتار ، وقد حلق فى أعالى الجو ساعات طوال ، ولما أعياه التعب هوى إلى أرض لم يسمع فيها سوى نقيق الضفادع الساكنة فى المياه الراكدة ونعيق البوم والغربان . فهل يطرب لأنه زعيم الطرب والمطربين ، وهذا ما نعلمه عنه بجلاء ليس ينكر ؟ .

أم يتخذ ما تصوره من ضعف وامتهان ، قوة نفسية لأنين يبعث به معجزات الألحان ، ليسلو ويغلو فى السلو ، وهو ناء عن من أودعهم وأودعوه حسن الظن . ؟

أم يطير ، وما فى وسعه الطيران . ؟

سؤال يستغرق التفكير بك وقتاً طويلا ، ويحتمل أن تعقب سيجارة إثر سيجارة ، فشعرت بك ، فهلا ، دعنى أرفه عما أصابك ، ترى ماذا فعل هذا العندليب ؟ . ولما لم يجد بد ، سوى السجن ، فاتخذ من نعيق الغربان ، آلة عزف تساعده على تصرف جوهريته الرخيمة من نقيق الضفادع بين آن

وآخر ، كان باك على أشياء حيره مصيرها وهان ، فأنساه ماضيه وحاضره ، وبين هذه التأملات والتصورات التى تتقاذفه كالموج المهذار ، والتى تحد بالكاتب لتشقيه وما تشقيه إلا لتؤلمه ، فترفه عنه الأذى .

راح العندليب يبعث المعجزات من صوته السحرى ، ذاك السحر النفاذ المستخرج من الأعماق إلى الأعماق والذى إذا جال بخاطر أى قلب زاهد منعوت بالجمود غداه أسيراً وكسيراً فى الحال .

فأمسكت محور الحياة ، وبين دمعة تهزنى وابتسامة تطربنى هممت أن أكتب خطرات موجزة لهذا العندليب ، وإذا الخيال يدنو من الحقيقة ، والحقيقة كذلك تدنو من الخيال وكلاهما يجرى أمام الثانى بطريقة عكسية ، وفجأة سقط أمامى عندليب فاراً من أذية طفل ، فطرحت قلمى ، وأمسكته لأدخله فى قفص الظنى ، وأنا أجهل أحضر له ؟ أم لسواه ؟ فسلو الصدف ؟ ، أو دعوا الصدف تتمتع بسؤالكم ، وسواء كان له أو لغيره ، فأريد أن أحقق المثل البغدادى الشائع (ما يصيبك إلا نصيبك) .

فأقفلت باب القفص ، وما أن وضعت له الماء والطعام ، وإذا بطفل جاهل ، يدق الباب وهو يبكى :

ـ عمة ، عمة ، عندليبى . إنه والله عندليبى .

وبعد أن فتحت له الباب سألته :

ـ ما أمهرك أيها الطفل العزيز ، لدرجة أن أصبحت البلابل والعصافير تحسها أذنيك ، (وقد شاهدت بيده اليسرى عصفور) .

فرد وقد امتعض وجهه أسفاً وخجلا :

ـ رأيته يا عمة ، على شجرة عالية ، وما أن وقع عليه بصرى حتى صوبته عفواً . فأجدت الهدف ، فسقط فى محل مجهول ، إذ لولا تغريده الذى سمعته بين الفينة والفينة والذى كان سر استرشادى لمكانه ، فاقتربت نحو الصوت ، وإذا بنفس العندليب .

ـ ما أقساك يا عزيزى الطفل ! .

ـ لم أقصد من عملى هذا أن أوذى العندليب ، بل وددت أجرب سهمى .

ـ إذاً كان عفواً ، وهفواً ، قصد اللعب ليس إلا .

ـ لا ، لا ، أبداً قصدت المفخرة بين خلانى الأطفال .

وما أن سمع العندليب هذه الكلمات ـ وإن لم تكن قاسية فى عرف الأطفال ـ حتى راح يدفع باب القفص بجناحيه

يريد تحطيم نفسه ويضرب رأسه ، فى القفص ، ففتحت الباب لأطلقه ، فوجدته يشرب من قدح المـاء ، الذى أمضى به روياً فخلته ظمآن ، فقلبته ، فوجدته سطراً فى سجل الفناء ، فالتفت إلى الطفل ، وبعد سكوت دام لحظتين ، أنبته على رداءة فعلته ورجوته أن يكف عن مثل هذه الأعمـال ، فحيـاة المرء إنسانيته ، ومتى ما خلت روح المرء منها فهو عدم لا خالد .

فندم الطفل على صنيعه ، واستغفر ربه ، وذرفت عينـاه دمعة كلها رثاء لهذا العندليب الذى كان سبب بواره وتلفه .

رحم الله المعرى ، وأنزله جنان الخلد ، حين يقول :

فمـا أذنب الدهر الذى أنت لائم
ولـكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

من سرّه خلق .. ساءته اخلاق

يا ليت شعرى أى مدرسة بها

درس الحقوق فأدعى بحقوقى

قال الشاعر ونعم قوله ، فما تريدنى أن أقول : والله أقول أعوذ بك يارب وأستغفرك . . من أناس ساءنى خلقهم ، وغلظة حديثهم ، ومع احترامى لهم وإن لم يكونوا للاحترام أهلا . . أتابع قولى لفرد ذله مقاله فى نظرى . . فأستميحه عذراً ، حيث الذنب ذنبه ، فتهجم ولا موجب للتهجم ، واضطرب وقسى حيث لا داعى للاضطراب والقسوة ، ونزل بى حدراً كما يقول المثل البغدادى . . كما ينزل على عدوه اللدود . . فلقد خسر . . وأى خسارة . . يا ترى ؟ .

خسر حسن ظنى به . . وحسن ظنه حتى بنفسه . . وإليك الرد . . .

قرأتك يا أخى للمرة الأولى والثانية فقط ، ولا أود أن أقرأك بعدئذ مهما حاولت أن تبدى اعتذاراً وتأسفاً ، فالبون فسيح بين فكرتى فيك فى المرتين ، فخلتك أولا فتى له من مجد

الخلق ما يساعد على تربية جيل ناهض ، ليس إلا . فهممت أن أردك غير ردى هذا . إلا أن هناك مواضيع متناثرة ألهتنى وحالت دونى . . والآن قد انبلج لعينى قلبك الفحمى لا سيما على (مجدك خلقك) ، ولو كان ردك رداً أدبياً يليق بقدسية الأدب لحمدت الله على أنك من الذين يخدمون المجتمع العراق بشتى الطرق . . فيا لسوء الحظ . . ويا لخيبة الآمال ويا لبئس الدهر . . فلقد تعجلت بردك الثانى ، ولو كانت عجلتك لهان الأمر . . ولكن عجلة أناس لئام دفعوك للعجلة فأوقعوك فى اللوم والعتاب . . وما أن وقعت ولا أهيب بك أن تقع للمرة الثالثة ، فعثرت لا بين سطورك التى تصنع بها قلمك زوراً ، بل بين خبايا نفسك على شىء رمزى أفهمه غير فهمك ، وألمسه غير لمسك . . وأقدره غير تقديرك . ولتعلم يا أيها الأخ ، وإن كنت غير لائق لأخوتى ، أو لازدياد علمك ، لا لكونك اتهمتنى بعاشقة المعرى الضرير . . أو أرمز لشخص أكنه المعرى ، فلست عاشقة الأعمى وحده فحسب ، بل عاشقة ، يا أخى ، كل بصير وضرير ، يضمر للمسكين مضماراً حسناً !!

ولو فرضنا جدلا وتصورناك أو تصورت نفسك المعرى لتنال رضاى أو أغفر ذلتك ، فاعتقد بالله ، وبعدعثورى على

كتابك لا أقرأ ولا كلمة ، ثم أرجع فأقول لو تابعت تصوراتى وتخيلاتى ، وليست تصوراتى وتخيلاتى أنا فقط ، بل كل شخص يحترم المعرى الضرير . . ويقدّر خدمته الأدبية وعلمه الفلسفى وروحيته الأبية التى تأبى حتى مس الأذى للحيوانات . . أو تصورت نفسك المعرى فنهجت نهجه وتابعت حياته فظلموك الناس حياً ونقموا عليك ونغصوا عيشك ، ولم يكتفوا بظلمك حياً ، بل ظلموك وأنت ميت ، فجاءت بعد ألف ونيف سنة على مماتك ، فتاة مثلى احترمتك وأنزلتك منها منزلة الأبوّة لحرمانها من الأب . . فأقامت لك وزن الاحترام والجلال الذى يستحقه علمك وأدبك . . فهتفت بروحيتك ، وتدللت بأبياتك ، فعطفت عليك لزهدك . . ورثت لعذابك النفسانى ، وودت لو تقدم عينيها هبة لك . . علك تتذوق سر الحياة . . فكتبت خواطرها . . ورسمت تصورها ، ونحتت حبها على ورقة الفؤاد . . وما أن واصلتك هذه المنزلة أو وصلت بك . جاء أحد المتطفلون فاتهموها بالعشق والغرام . . والهوى والهيام . . ماذا يكن موقفك يا من جعلتك المعرى موقتاً . . فأرجو أن تحكم على هذا الشخص باعتبارك المعرى . . وإن كنت لا أهيب بك إعطائى هذا الدور . . ثم عقبت حديثك (تتمنين يا فتاة

الإنسانية لو عاد أبو العلاء لأذقتيه شيئاً من حلاوة فاكهتك تلك الفاكهة التى فازت بلقب ملكة الجمال مرات) ومع احترامى لضيق عقلك . . والذى أقصد (بفاكهة الحياة) غير الفاكهة الجنسية التى حدت بك أو حدا بها قصر بصرك . وجل ما أعنيه بفاكهة الحياة . . هى فاكهة الروح الأدبية الباقية على الدهر ما بقى الدهر ، أو لو كان المعرى طيباً وخدمته أو ناولته على الأقل قلماً وورقة أو لسجلت ما يحتاج من تسجيل لتضاعف نبوغه ولخدمت بروحى الأدب خدمة تتناقلها الأجيال بعد الأجيال ، وإنى لازلت أقول أقدم نفسى خادمة بهذه العبارة ، لكل من يهيب بى أن أساعده من هذه الناحية الروحية الخالدة لا سيما الأعمى ، فهل أدركت يا أيها الطفل المتطفل : ما معنى الفاكهة فى عرفى ؟ .

وسواء أدركتها أم تجاهلت إدراكها . . فذلك لا يهمنى . . فاسمع :

إن من الناس من يقرأ ولا يكتب فيلتذ ليعيش .

ومن الناس من يلتذ بقراءة وكتابة فقرأ وما كتب فيعيش أيضاً .

ومن الناس من يقرأ ويكتب ليخدم الأدب ، فيخلد ليلتذ بخلوده ، لا بقراءته ولا بكتابته بل بتضحيته وروحيته .

وأنا أجهل من أى تكن ؟ .

فقلت (تعليقات مكشوفة إلى عشيقة رهين المحبسين) . فمرحى مرحى لهذا الموضوع الذى فى إمكانى أن أقودك لساحة المحكمة ، وأى محكمة يا ترى ؟ . . هى محكمة الأخلاق التى افتقرت منهـــا . . فزفرت زفرة حارة موجعة وكأنك المقصود بحديث (مجدك خلقك) ، أو كأنى المتقصدة فى وقعك فجأ . ! فأنت من ؟ وأنا من ؟ وما شأنى منك ؟ أو شأنك منى ؟ . . وها إنى أجيبك بصراحة ليرى القارىء من مجده خلقه ! !

ولا أريد أن تقرأه أنت ، فأنت جازم حق نفسك وحق الغير . . .

فأنا لا أعرفك . . ولا أريد أن أعرفك . . حتى ولا أحاول معرفتك ! ! فلقد كفانى جس نبضك خلقاً فوجدت الفارق عظيما بين ما تصورت وأنت حسن النية . . وبين ما شاغب زيد وعمرو ، ففسدت بأقوالهم عليك روحيتك ونيتك . ولست أدرى يا أخى العزيز أيهما كان الأسبق بك ؟ أحسن النية ، الذى أملته فيك ؟ . وتوسمته ؟ أم حرمانك منها . . حيث البشر قسمان : قسم يخلد بخلقه ليعيش ، وقسم يضرب الخلق

بحذاءه وما ملك فى حياته سوى شهرة عمياء فتكبر وتجبر . . فأنا أجهل من أى تكن . . أتخلد لتعيش ؟ أم تعيش لتخلد ؟ ومهما يكن فأعتذر لجهلى إياك . . (والعذر عند كرام النفوس مقبول) ، ولم تكتف بهذيانك الذى قادك . . أو قدته . . إلا أن قلت (بأنى كاتبة أستأجر الأدباء) وقد نوّهت إحدى الجرائد العراقية حول العقاد بأنه الكاتب المأجور (فأحمد الله بأنى فقت تهمة العقاد البرىء) . ولو فرضنا جدلا أنى أستأجر الأدباء لأكتب ، فأى أديب تقوده حرمة الأدب ليبيع أدبه ، والذى تعنيه هو المأجور . . فلو عثرت عليه فأسألك بالله قل لى من ؟ وأين ؟ . وحبذا لو استأجرتك . . لتحكم على نفسك بنفسك . . ولو رجعت عهداً ليس بالطويل إلى الوراء لكانت المرحومة « مى » أولى من أبدى الأدباء والشعراء مساعدتها .

إلى أن تقول حرسك الله . . (عرفتك يا فتاة الإنسانية مذ عرفت التربة التى أنبتتك ، وأسباب الغاية التى كثفت إعجابك برهين المحبسين . . المظلوم كما تدعين ، فكلاكما مبتل بدهره ، ولكن البلية هى أنك تريدين أن تربطى بها نكبة قومك) .

يا للسخف ويا للسخرية يا تلميذى المحترم . فأنت تلميذ

فى كليتك ومدرستك ، وهذا ليس ينكر . . ومثلى لا تقبلك تلميذاً فى الصف التمهيدى فى كلية الأخلاق التى درست فيها . . ولشد ما أمقت مع احترامى للسياسيين . . السياسة . . لما فيها من نكبة للبشرية جمعاء . . فتودى بأبناء آدم المساكين إلى الفناء اللانهائى ، وكفانا ما خرّبت ويلات الحروب ، ودمرت أبناء آدم وحواء . وليت شعرى لو كان العالم كله عالم أدب وشعر .

وهذا المرحوم سعد زغلول يقول للمرحوم أمير الشعراء :

الفن باق والسياسة زائلة ! !

دعنى أسألك . . واهدأ لا تضطرب ، لو مررت بشارع عام ، وشاء لأحد المتطفلين أن يصفعك بضربة على وجهك ، لتوهمه بعدو فسبك وشتمك ، ماذا يكن موقفك تجاه هذا الشخص المتطفل ، وإن غرتك لحيته وشارباه ؟ أتهدأ أم تضطرب ؟ أم تسحب مسدسك فيما لو كنت مسلح . . ؟ أتطعنه كما طعنك ؟ . . أتضربه كما ضربك ؟ . . . ولو وجهت لى نفس السؤال بصراحة عنوانها . . مجدى خلق . . وخلق دليلى ! لمررت به مر الكرام . . وصافحته ، فلعله يزيدنى ألماً لأطرب . . فالألم أساس اللذة والطرب . . والآن ، وبعد أن حكم القارىء على خلقنا ومقدار فهمنا بأمور الحياة . . فليقل :

أينا بأمور الحياة تلميذها ؟ وأينا هو الأستاذ ؟ مع العلم .. بأن ردك .. لم يكن رداً أدبياً بالمعنى . . فعلام ألومك وليس الذنب ذنبك أو ذنبي ، بل ذنب الحظ التعيس . . الذى عزّ الجهلاء . . وذلّ الأدباء . . .

فأتغنى بقول الشاعر . . . احمد بهاء الدين . . .

عزيز على الحر يا أدمع ... يسيل عصيك والطيع
وفى القلب من صبره حرقة ... وللصبر فى بأسه مصرع
يجالد دهراً عظيم الأذى ... وما عاد فى قوسه منزع
يعيش بليل طويل المدى ... كأن نهاره لا يطلع
وأنى كالتبر فى منجم ... عليه التراب فما يسطع
يداس فكم جاهل فوقه ... يدب ، وكم أحمق يرتع

يالزمن لم يعد للأديب قيمته . . ولا للكاتب مكانته . . ولا للسياسى قدسيته . . ولا للفنان حرمته . . ويا لزمن إن عثر الأعمى مرة واحدة قالوا له : (وعمى عوض الرحمان) . . ماذا . . ماذا أقول لزمن استبد به الجهل واستحكم الغباء ؟ وماذا تريدنى أن أقول فى أناس يندمون بعد فوات الأوان . . فليس العقل هو الاعتراف بعد (عضة الندم) . . بأن فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة . . لا . .

(لا يا أفندم) ، بل والعقل وسلطانه هو فى أناس يفكرون حين القول والكتابة والميل . . والآن ما بقى لك . . سوى أن تجردنى من الثياب وتترك حرمة العرض لله . . وبيمينك سوط . . وتدعى يا أخى بأن مجدك خلقك وا أسفاً لمن يتصور الأخلاق ومجدها فى تعدد الشهادات . . .

ووا أسفاً لمن يتصور الأخلاق ومجدها يتعدى من حمل الشهادات إلى القصور والأموال .

ووا أسفاً لمن لايكتفى بما ذكرت ، بل يتعداها منغمساً إلى الجاه والسلطان . . فأنا لست من هؤلاء . . ولا أرجو أن أكون من أولئك . ؛ فيا أخى لاتندم حين لا يغنيك الندم . . ولاتأسف ، فليس أسفك هو خلاصك . . ولا تقودك ذيول الألم والحزن ، فتتحسر وتزفر ، وتيأس وتقنط ، فلن يعد فى طاقتى أن ألدغك كما لدغتنى ، فأرجو أن أرفه بحديثى عنك همك وعناءك . . وحزنك وألمك . . فالحياة لاتستحق الإساءة والحقد والكيد . . تافهة بكل ما أوتيت معجزات التفاهة من حول وقوى . . ولاتنس فبالرغم من تفاهتها وكما قيل (لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك . .) فكن وديعاً بقلبك كل الوداعة . . سمحاً كل السماح ، ثم قارن بين ما أنت فيه طبعاً وخلقاً . . وبين ما أنت فيه تكلفاً بالطبع . . فستجد

وأنا واثقة من وجودك .. كل الوثوق .. لا هم .. ولا حزن .. ولا ألم .. ولا حسرة .. ولا حتى الاعتراف (بأن فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة) .

أتدرى لماذا ؟ ؟

لأنك سبقتهم بقلبك وفعله ، ووجدانك ومقداره ، وعقلك وخبرته ، ونضوجك وتجربته ، ومزاجك وكميته ، وعدلك ومدى استقامته ، ومتى ما واصل ضميرك هذه البغية التى أشعرتك باللذة ، أو واصلته فسيقر استقرارك ، ويستأثر استئثارك .. بأنك فتى مرتاع فى حياتك وغفوتك الأبدية ، وثق بى ، ولا تنحدر بك الأقوال يميناً وشمالا ، فتمضك بعد الخيبة ، وتعضك بعد اليأس ، فتعاند نفسك بالصواب شمالا حيث الشمال جنوب ، وتسير جنوباً حيث وجب سيرك نحو الشمال . فتسأل نفسك : يا ويحى ما ضرنى لو اتجه حب وجدانى وخلق . آه كيف أغفر زلتى .. ؟ وبين (عضة الندم) التى تتقاذفك لا ترى سوى وحشة تهزك .. وآهة تمضك ، وخيبة تقضى عليك ، فتشق وتتعذب ، ويستمر شقاءك وتعذيبك ، لأنك جاوزت حق المعرى .. وحق .

والآن وبعد أن ناقشتك (بهذيانى الهستيرى المتفكك كما قلت وعزمك على محاربتى) ، أقول إن من يكمن فى ثيابى ، أو

أكمن فى ثيابه ، هو إله كبير يخشع لقوته الأغنياء والفقراء ، والعبيد والأحرار . . والأعزاء والأذلاء . . لا ملك يضاهيه ولا هيئة تستطيع الاستخفاف بحكمته وعدالته . . تمسكت به لضعفى ولقوتى . . وتمسك بى هو الآخر . . فان استخففت به فليتول أمرك وجزاك . . فلقد غفرت لك زلتك الأدبية ، ولا تنس ، فلا قيمة للأديب فى محيط كما يقول أحد الأخوان (عمه الجهل وسربله النفاق) ، وتقبل نهاية الحديث . . بأبيات المعرى رحمه الله :

يا بلاداً مشى عليها أولو افتقار وأغنياء
كم وعظ الواعظون منا وقام فى الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزل داؤك العياء

والآن وبعد أن أطلعتك على بعض أبيات أعظم فيلسوف يحق للشرق أن يقيم له تمثال من دم ولحم . . لا من حجر وصخر . راجع (الفصول والغايات) لتؤمن بأن مجد المعرى خلقه من طيات سطوره ، وسواء آمنت أم لم تؤمن ، لعنته أم أنزلته غيثاً من رحمتك . فالمظلوم مظلوم سواء أكان حياً أم ميتاً . . فلا تنس قوله :

ولا يبالى الميت (فى قبره) بذمة شيع أم حمده
والواحد المفرد فى حتفه كالحاشد المكثر من حشده

قلبى وعقلى

قلبى وعقلى .. أيهما أكثر سيطرة على النفس وأقدر على قيادتها وتوجيهها فى الحياة ؟ .

هذا سؤال طالما وجهته إلى نفسى فى لحظات التفكير والخيال . وكان عقلى يجيبنى دائماً بغير ما يجيبنى قلبى ، لذلك وددت أن أخص بهذه الكلمة صديقتى .. المتهمة بذات القلب المقفل ، لعلها تجد بعض التسلية فى هذا الحديث .

جلست إلى مكتبى أدوّن قصة خيالية أقرب ما تكون إلى الواقع . وما كدت أختم القصة .. حتى انتصبت أمامى تلك الحسناء التى كثيراً ما تجادلنى فى كل حركة من حركاتى ، وتود لو كانت مكانى فى كل أمر من الأمور ... فشعرت أن هناك قلباً ينبض بالحيوية ، ونفساً تتحرى أسرار الحياة ، ودقائق الأمور ... ولكن علامات الاستفهام لم تجد لى حلا مقبولا لهذه الفتاة ! .

فقد جلست أمامى تبادلنى الإشارات بدلال .. وكان الجو صافياً ، فلم أستغرب زيارتها .. وقد سبقتنى إلى الكلام (حفظها الله) زاعمة أنها معجبة بحديثى وتود لو أمضت طيلة

حياتها بحوارى !! .. فأجبتها شاكرة ، واستطردت تقول ، وهى تبعث دخان سيجارتها بتنهد وأسلوب تمثيلى :

ـ سؤال بسيط يا آنسة .

ـ تفضلى .

ـ أيهما دليلك فى الحياة : عقلك أم قلبك ؟ .

ـ والله لم أستغرب سؤالك يا صديقتى المعجبة .. فطالما جمعتنى وإياك مرحلة الدراسة بعض السنوات .. فاسمعى :

لا أزال أذكر خصومة عنيفة نشبت بين عقلى وقلبى ولكن الغلبة كانت من نصيب العقل .. لأنه الأقوى .. وهل يكون الحق يا أختاه لغير الأقوياء ؟ لقد قال العقل للقلب :

العقل ـ دعنى أكون صديقك ومرشدك أيها القلب .

القلب ـ أما يكفيك سيطرة علىّ أيها العقل ! .

العقل ـ أتحسب إرشادى لك جريمة أعاقب عليها ؟ أم جناية لا تغتفر ؟ أقول مع احترامى لك : إنك ساذج جاهل.

القلب ـ يا ترى ماذا يكون لو تغلبت علىّ وأطلقت لك عنان التصرف كما تشاء .

العقل ـ لا يكون شىء أبداً .

القلب ـ لقد منحنا عمراً واحداً ، فلا يصح أن نقضيه فى العذاب والخيبة والحرمان .

العقل – العبرة يا قلباه فى الحرمان . . خير من الاحتقار فى الترف .

القلب – أقصد أن الحياة لا تكون شيئاً بغير التمتع واللذات .

العقل – ما أقصر نظرك . . وما أبعد نظرى .

فاغرورقت عين القلب بالدموع . . وتاهت نظراته الحيرى شمالا وجنوبا وقال فى ذلة وانكسار :

القلب – إلامَ تتحكم فى شؤونى . . وحتامَ تبقى حياتى رهن أوامرك ؟ .

العقل – هذا من مصلحتك يا عزيزى . . فلولا تبصرى وإرشادى لأصبحت تائهاً فى بيداء الحياة . . سابحاً فى ضباب الأوهام والخيالات . . أنظر إلى الذين حكموا قلوبهم فى الأمور أنظر . . أين مكانتهم فى المجتمع ؟ وأين مصيرهم فى الحياة ؟ . ماذا فادهم الحسب العالى والنسب الرفيع ؟ لا بل ماذا أجداهم الذكاء المفرط والشخصية القوية ؟ ! . . ألست ترانى بعد هذه الأمثال والبراهين جديرة بقيادتك ؟ . أم لا زلت فى نظرك عدواً لدودا ؟ .

القلب – آه ! وآه من آه . . وأى عدو أعدى لى منك ؟ . . كما قال المنصور لأبى مسلم الخراسانى .

العقل ــ كن هادئاً وديعاً يا صديقى ولا يأخذك الغضب فتفقد توازنك وتسوء عليك العاقبة فى الدارين .

القلب ــ ماذا تعنى ؟ .

العقل ــ إنك تعلم ما أعنيه جيداً ! .

وهنا انتفضت زائرتى كمن يشعر بخفقان فى قلبه ودوران فى رأسه وصراع حاد بين عقله وقلبه . فقلت :

ــ هدئى روعك يا أختاه .. واستبدلى سيجارتك الجافة بأخرى مرطبة لعلها تريح أعصابك وتجعل فيك استعداداً للتفاهم فى أمر يتعلق بسعادتك .. سواء أكنت يا عزيزتى متهمة بذات القلب المقفل أو المفتوح .

فاستحسنت حديثى ورجتنى إكمال محاورة القلب والعقل لما تضمنته من عبر لذيذة وحقائق غريبة ، فاستطردت أقول :

القلب ــ إننى عديم الذكاء متحجر الدماغ فاضرب لى مثلا لما تقول لعله أضمن لتصديقك .

العقل ــ الأمر بسيط جداً ياعزيزى القلب . . تصوّر أن فتاة اتهمت بالقلب المقفل ، وتمادى اتهامها كلما زاد بها إعجاب الجنسين ، فهل تظنها تغضب أم تسر ؟ .

فانتبهت زائرتى وأحدقت بفمى كأنها تريد شراء الكلمات لتبيعها بسعر أغلى ، شأن التاجر القدير ، وأجابتنى على الفور :

— إنها تسر طبعاً . .

فقلت :

— رعاك الله ، إذن أنت من اللائى يقدسن العقل لا القلب . . فما لك وللناس بعد ذلك ؟ . . ولم يزعجك هرجهم ومرجهم . . دعيهم يا أخت يرقصون كما يشاؤون فلا بد أن يجد التعب سبيله إلى نفوسهم وأنت سعيدة شاغلة أفكارهم . .

فانقلبت صديقتى على قفاها من الضحك وهى تقول :

— جميل رائع .. يعجبنى أن أسجل حديثك بماء الذهب فهل من مزيد ؟ ! .

— دعينى أكمل حوار العقل والقلب كما ترغبين .

العقل — تصوّر أن فتاة أحبت فتى وهاما ببعضهما كل الهيام وقد ضاع الأمل وانقطع الرجاء عندما حانت الخطوبة فهل ستبقى على حبه وقد قال الشاعر ونعم ما قال :

وأقسمت لا تجرى دموعى على امرىء
إذا كان لا تجرى علىّ دموعه

القلب — إلى متى أظل يارب دون تقدم فى الحياة ، وقد قال الشاعر :

ما أقصر العمر حتى نضيعه فى النضال . . الخ .

العقل — مهلا ، مهلا . . إنك على حق يا عزيزى . .

ولكن . . يجب أن لا تتسرع . . لأن الاستفهام فى حالتى الغضب والسرور مبعث النتائج الحسنة .

القلب ــ لا أفهم ما تقوله، أريد مثلا .

العقل ــ يتمتم : (الصبر طيب) تصور أنك موضع الحسد والغيرة من الناس لأنك تفوقهم فى كثير من الخصائص والميزات . ماذا يكون موقفك تجاه الاتهامات والمطاعن ؟

القلب ــ أطعنهم كما يطعنوننى .

العقل ــ ألم أقل لك أن وقت ترفيعك لم يحن بعد ؟

القلب ــ أنت مجنون .

العقل ــ قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم :
ما لذة العيش إلا للمجانين .

القلب ــ أسكت وإلا !! .

العقل ــ وإلا ماذا ؟ .

القلب ــ لم أفهم ماذا تقصد ؟ .

العقل ــ ألا تعلم أن الحق للقوة ؟ .

ولم أنتبه إلا وعقلى متغلب على قلبى . . فتغدق يمناى ضربتها بشدة على جبهته .

ــ جرى ذلك ؟ .

ــ (بتعجب) جرى ذلك وأنت حالمة نائمة !! .

— نعم .

ولنعد إليك أيتها المتهمة بالقلب المقفل : دعى الناس وضوضاءهم .. ومتى وجد البئر اللائق لإروائك .. فتح قلبك بابه على مصراعيه ، إذن أين القفل وأين الاتهام ؟ .

فخرجت وهى تتلفت معجبة بحديثى ، فابتسمت لها إيجاباً على الالتفات . وهكذا ودعتنى وانصرفت .

أمّى ...

إلى أين تريدين أن تذهبى بى . أو أذهب بك ؟ أإلى مثوى الخلود والبقاء ؟ . . أم إلى دار الهناء المشوب بالعناء ؟ .

لست أدرى أى أرض اخترتيها فآثرت المقام فيها وأنت لا زلت حية خالدة بخلقك الرفيع ، وشمائلك الطيبة ، وإنسانيتك العالية ...

لست أدرى أى أرض تلك ...

يا من أفديك بالروح ، وما لى سوى الروح . . نعم :

ما لى سوى روحى وباذل روحه

فى حب من يهواه ليس بمسرف

ويميناً لو ملكت أن استرد روحى بعد بذلها لك ألف مرة لافتديتك بها ألفاً . . وما وفيت ، فقد عرفتك أماً وأباً حين افتقدت حنان الأب ، فما أشعرنى وجودك بالحرمان منه . وما انتابنى جوع ، ولا تسرب إلى قلبى همّ ، ولا فقراً شكوت . فإن التفت رأيتك تحيطيننى بالعناية والرعاية والعطف فكأنى ما أعرف من دنياى إلاك .

أكلمك يا من وجدت فيك كأس ندمانى . . بلغة ينظمها

الشاعر بخرائده العصماء ، ويسطرها الكاتب ببراعته الحية ، ويبعثها الموسيقار بأنغامه الساحرة . فيهفو لكل ذلك قلبي ، وتطرب نفسي ، وتدب الحياة إلى سطوري ، فألمس في كل جانحة من جوانحي أمي ، وفي كل خفقة من خفقات قلبي هذا الإسم الحبيب ، وفي كل نبضة من نبضات جسمي ، بل في فمي وكياني وشعوري ، أمي . .

تعالي إلى جانبي يا أمي الحنون ودعيني أتملى بحنانك .

تعالي لأطلعك على هؤلاء الناس الذين غرتهم زخارف المدنية ، فانقادوا لها انقياد النعام .

تعالي . . واتركي هؤلاء القوم لأطلعك على قوم لا أدري هل حان مجيئهم إلى مثواك ، أم لم يحن ؟

تعالي نتحدث ولا حرج عن ميلنا وهوانا ، بل عن ذلنا وشقانا ، فالناس معذورون إذ يغبطون لعيشتنا الرغيدة ، وأمانينا السعيدة ، ولياليا الملاح ، وإن حرمتنا الظروف جناح الأبوة .

تعالي يا أماه واشربي معي كؤوس القناعة مترعة ، فان حياتنا ، وإن كانت من العز إلى الذل ، فاستبشري بها ، بل استبشري بدموعها الهاملات ، وانعمي بالأبهدوئها وسكينتها ،

وإن كنا لم ننعم بالهدوء والسكينة ، فدارنا موحشة خالية من أناس يضحكون وضميرهم متقمطر باللؤم والحسد !.

تعالى يا أماه ودعينى أسقيك قدح الشاى ، فأنت والله حياتى ومن دونك لا حياة لى .

أواه . . ماهذه الدموع التى تنهمر من عينيك أتراها تشير إلى ذكرى ما كنت أنعم فيه من الدلال ؟ أم إسرافى فى حبك ؟

أنا يا أماه كل ماناغيتك باسمك أخذتنى هزّة من الطرب ونشوة من السرور ، فينشرح قلبى الكئيب حتى يكاد يطير بى إلى دنيا الغفران . . ففيها السعادة لا شك ، أما هنا فما أدرى كيف يظن الناس يا أماه أنهم يجدون السعادة . . حين يروحون وحين يغدون ، وما هم والله إلا واهمون ، فهم من طلب السعادة كالملتمس من السراب ماء ، وما هم فى ذلك كله إلا بين خادع ومخدوع ، تغرهم المظاهر البراقة الزائلة ، وهى فى الواقع لم تكن إلا نفاية من النفايات .

وعلى هذه الشاكلة كان الناس من الأزل ، منهم من يرى السعادة فى مظاهر الكون وروعته . . وفيما تسبغه الطبيعة عليه من سحر وفنون . . فيرى فى هذا الكون كواكب زاهرة ، وسحباً ماطرة ، وأمواج متلاطمة ، ويرى الجمال الفاتن الأخاذ ، والوجوه الملاح فى زرقة السماء ، وفى المروج الخضراء . .

وفى هدير الماء، وفى هديل الحمام. وفى كل مظهر من مظاهر الطبيعة .. ومن الناس يا أماه من يرى فى الصحة والشباب والفراغ وما علم:

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة

وهو إذ يؤمن بهذه السعادة يسترشد بقول المتنبىء:

آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا من المرء ولى

ومن الناس يا أماه من يرى السعادة فى المال والبنين مستهدياً بالآية الكريمة ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾.

أما أنا يا أماه، فآه ثم آه .. لست من هؤلاء جميعاً. فلا أرى السعادة فى وحشة الليل، ولا فى بهجة النهار، ولا فى الكون والطبيعة، ولا فى الصحة والشباب والفراغ، ولا فى المال والبنون. وإنما .. أنا من أولئك الذين يرون السعادة فى أحضان أمهاتهم فقدفتحت عينى فيك على أب يحمينى فوجدت منك أماً وأباً. وكذلك كان أخوتى وأخواتى، وما وجدت ثمة فارق بينى وبينهم، فكلنا مشمولون بعطف الأبوة والأمومة منك، أذكر .. وماذا أذكر؟ .. من مآثرك يا أماه، فقد بذلت من الجهد والمال فى سبيل رعايتنا والله به عليم، بل بذلت من دمك وعصارة روحك، ما أمدّنا بالحيوية. وكان خليقاً بنا أن نعيش بك، ولك، وفى سبيلك .. سبيل السعادة.

ولست أدرى يا أماه ما الذى أذكره من سعادتى فيك ؟ فإنى لأخالها على طولها قصيرة، ولى العذر، فقد قال شاعرنا الجواهرى الكبير :

أجللتُ منظرك البديع ومنظر
أجللته لِمَ لا يكون بديعا ؟
ونعمت أسبوعاً بها سعيدة
سنة نعمت خلالها أسبوعا

وذكراك يا أماه لا تبرح ماثلة أمام عينى، تمدنى بالقوة على حين تبعث فى قلبى الأسى، وما أنا فيك إلا كما قال شاعرنا الجواهرى الكبير أيضاً :

إيه أحبائى الذين ترعرعوا
ما بين أوضاع الصبا وحجوله
إنى وإن غلب السلو صبابتى
واعتضت عن نجم الهوى بأفوله
لتشوقنى ذكراكم ويهزنى
طرب إلى قال الشباب وقيله
حرّان مقتول الميول وعندكم
إطفاء غلته وبعث ميوله

وماذا تجدينى الذكرى يا أماه وهى مفرحة ممضة لا تمنحنى من السعادة إلا بمقدار ما تبعث فىّ من الألم.. وكلما تبعثه هذه الذكرى على آسلة قلمى ففى سبيلك يا أماه ما أعانى من ألمها، فإلى ذكراك أبعث ما يسيل على قلمى كما منح شاعرنا الجواهرى حسان لبنان: عيون شعره فقال:

وحسان لبنان منحت قصائدى
فسحبنهن كدلهن ذيولا
أهديتهن عيونهن نوافذاً
كعيونهن إذا رمين قتيلا
فرجعت أدراجى أجر غنائماً
من بنت بيروت أسى وغليلا
لعن القريض فأى مثرٍ شائخ
سرعان ما استجدى الحسان ذليلا
ردت مطامحه البعاد دوانيا
وكثير ما منح الخيال قليلا

وبينما أنا فى هذه المناجاة كالحالمة ودموعى منهمرة، إذا بأمى تبتدرنى قائلة: ماذا تفعلين يافتاتى؟ وفيم سهومك؟ وبماذا

تفكرين ؟ . . فرفعت إليها عينى ودمعة الأمومة الصادقة تترقرق فى مآقيّ :

أفكر فى حبى إياك ، فهو المثل الأعلى للفضائل ومكارم الأخلاق . ذلك لأنك يا أماه المرأة الصالحة لتهذيب النفس ، وصقل العقل . وكفى بذلك يا أماه شرفاً .

وداعًا ...

[مهداة الى الشاعر ايليا أبو ماضى]

ودعتك وما أردت الوداع . . .

ودعتك بدموعى الهاملة وعيونى الحائرة وقلبى الولهان .. وروحى الهائمة . . .

ودعتك والشوق يهزنى إليك هزة الحبيب المفارق وأنا إذ أكتب فأنعشك أعود فأتذكر عهدى معك وأتلهف للقياك .

ودعتك أنت يا قارىء .. نعم ودعتك وكلانا عزيز عليه الوداع ، وما أدرى والله ما الذى حملنى على وداعك ، أهو ما ألقاه فى دنيـاى من عراقيل وأشواك ؟ يجهد أعداء الإنسانية على بثها فى طريق أينما توجهت ؟ أم هذه الوحدة الموحشة التى تغمر نفسى فأضيق بهـا وتضيق بى ، ولا أجد منجى ألوذ به غير الانطواء على نفسى ، أروى فيها ما أحسه فى روحى .. من أوار الظمأ فأتمثل بقول شاعرنا الجواهرى :

ليت إنى مع السوائم فى الأرض
شرود أرعى القتـاد انتجـاعا
لا ترى عيـــنى الديار ولا
تسمع أذنى ما لا تطيق استماعا

ودعتك وبودى لو يطول الوداع لأنعم بهذا الشعور الذى يضفيه هذا الموقف الحبيب إلى نفسى على ألمه . فأنت أخى .. وزميلى .. وما كانت هذه الأخوة وهذه الزمالة مبنيتين إلا على أسس وطيدة من سمو الأخلاق والتربية ، ولأزيد : ففى الدموع كل ما يجول فى نفسى من المعانى ، وهى يا قارىء خير ترجمان لحالى . . وهل كانت ساعة الوداع إلا انقطاع جزء من الفؤاد ، وقديماً قيل :

ولما قضى التوديع فينا قضاءه
رجعت ولكن لا تسل كيف مرجعى
فيا عينى العبرة عليهم تسكبى
ويا كبدى الحراء عليهم تقطعى

وحين أقف للوداع أمد يدى مصافحة إياك ، على حين أن يدينا لا تقويان على المصافحة ، وبودى لو أرفه عنك همك إن كان بين طوايا نفسك هم ، وأزيد سعادتك إن كانت لك بقايا من سعادة ! ! ولئن تخلى الصبر عنك ساعة الوداع فقد تخلى عنى قبل هذه الساعة .

ودعتك وكلى رجاء أن تحتفظ بذكرى وداعى ، ففيها عتاب لك ولوم عليك ، وفيها رضاك وفيها سخطك ، ودعتك وكم - آه - وددت لو تطول ساعة الوداع لأبثك ألمى وشجنى

وتبثني ألمك وشجنك ، فالحياة لا تخلو يا صديق من آهات القلوب !!

ودعتك حين لا ذنب لنـــا فيما يجره هذا التوديع من ألم لكلينا ، ولا نستحق من الحياة هذه القسوة ، فما ذنبك وما ذنبي ، ومطلب الكمال هو المسؤول عما يرزح تحته الناس من هموم الحياة .

ودعتك يا صديق القارىء ، وأنت قريب مني كل القرب وبعيد عني كل البعد ، فلا تندم ولا تأس ولا ترثي فقد قيل :

إن من يلازمه الحظ في الصباح لا يعلم ما يحل به في المساء.

ودعتك بدمعة عصية التسكاب والجواب وبفم لا يقوى على أن يبعث آهاته ، فدع لي آهاتي ، وإليك تحياتي وابتساماتي .

ودعتك بروحي الشاردة شاكية مِنْ مَنْ هم أصل أذاي وبلواي !!

ودعتك وأطرقت برأسي تفكيراً حتى ضاقت عليّ سبل التفكير . . .

ودعتك وأنا ألوذ بك منك (فلقد حيرتني اصطلاحات الناس التي يدعونها آداباً اجتماعية) وأدمت قلبي قساوة البشر للبشر . . والناس يا قارىء ، كما قيل ، معادن . . ومن المعادن ما يعلوه الصدأ ومنها من لا يجد الصدأ إليه سبيلا .

ودعتك يا من يشردنى وداعه فى متاهات الحياة ، وكل ما أوغل فيها قدماً أثر قدم ، اشتدت النار فى قلبي الواجف . . فخذ يا نور عينى كأس الوداع ، واعطنى من كؤوس النسيان ما ينسينى ساعة وداعك . . فلعلنى أنساك وأنسى إعجابك بى وتقديرك إياى ! .

ما أقساك يا صديق القارىء وما أرحمك . . فهات يدك لقد طال بى الثواء . . .

ودعتك وبودى لو أفرغ مما سمعته من أصوات المساكين إلى العندليب الصداح فى المهجر . . لأسمع منه لحن القلوب الكسيرة ! ! . . .

ودعتك بهمسة حائرة فخذ منى نحيب الناى الباكى ، ودع الصدى يوصل إلى سمعك هذا النحيب . . .

ودعتك غارقة فى أحلامى أو كالغارقة ، ذاهلة عما حولى أو كالذاهلة . . مستغرقة أعزف على فنون الاستغراق ، ناى آلامى ، فإذا بى أنتقل من لحن إلى لحن ، ومن ذهول إلى ذهول . . ومن استغراق إلى استغراق ، أفكر وأمعن فى التفكير . . فإذا بى وقد انهمرت على وجنتى الدموع ، وإذا بهذه الدموع : دموعى ودموعك . . ولو كان لى ذنب لهان الأمر واحتمل . . ولكن . . وكما يقول المعرى رحمه الله :

فما أذنب الدهر الذى أنت لائم

ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا

ودعتك وأنا أتصور نفسى أمامك وجهاً لوجه ، أحثك على الكلام وأنت فى حيرة لاتدرى كيف تعزف لحنك تجاه الضعيف ، فأدركت حين ذاك خلقك ولمسته ، فعزفت على بيان الحياة التى طال بنا وبها المقام حتى مللناه ، وقاومت الحياة حتى سئمتها ، والآن هات يدك لأصافحك فلقد طالت ساعة الوداع واستطال بنا الوقوف . . .

وهنا ذهل القارىء فجالت فى عينيه دمعة تشير إلى مدى ما انحدر إليه الأدب فى الشرق . ونهضت حينذاك من مكتبى ، ووقفت إجلالا لهذه الدمعة أكفكفها عنه ، وأخفف لوعته وأهون عليه هضيمة الحق وأهتف بشعوره الحى ، وما أن مددت يدى لأصافحه معجبة بسمو خلقه ، وكريم شمائله ، حتى راحت يدى تمضى فى الكتابة ، وراح المداد يتساقط على الورق حاملا صدى ما ضاع من حق الأدباء فى الشرق ! .

تحمل . . تحمل يا قارئى العزيز ، حتى لو صفعت على وجهك ، ولتكن وديعاً مثلى ، سليم النية ، حلو الشمائل ، لاتلق بالاً إلى نقيق الضفادع ، وليكن لك من الصبر ما تدفع به حقد الحاقدين ، وعدوان الموتورين ، دون أن تقابل حقداً

بحقد ، وعدوان بعدوان ، ولا تقس فالله لا يحب الذين يقسون . والحياة بعد هذا فى نظرى تافهة ، وبالرغم من تفاهتها فنسيج ثوبها مصنوع من آهاتنا .. وزخرف ألوانها مستوحاة من لوعتنا ، وليونة ملمسها مأخوذة من حيرتنا .

ودعتك يا قارئى العزيز .. بعد أن تلقيت درساً منك وتلقيت درساً منى ، وقد أزفت ساعة الوداع وليس فى استطاعتى المصافحة ، فيدى لا تقوى على احتمالها ، ورجائى أن تتقبل ما جال فى هذه النفس الأبية ، فتحتفظ بكلمتى كذكرى فيها الوئام .. وفيها المودة .. وفيها السلام .. ولعلنى ألتقى معك فى هذه المقطوعة الرقيقة التى انبلجت من عواطف سامية للشاعر الوجدانى الرقيق محمد يوسف مقلد ، وهو فى رأيى من روائع الشعر الحديث ، رقة وحسن ديباجة ...

(القصيدة الأدبية)

دومى إليك توجهى وذهابى
وإلى جمالك رجعتى ومآبى
أترعت أبريق وروحى ظامىء
فملأت من صهبائه أكوابى
يا زينة الدنيا البديعة إننى
صب لعمرك لست بالمتصابى

إنى إذا امتحن الهوى ألفيتنى
أفديك بالأصحاب والأحباب

طارت بألباب الرجال مذاهب
شتى من الأغراض والآراب

وتعددت صور الجمال فلم أكن
شغفاً بغير جمالك الخلاب

حابى بحبك عاشقوك وإننى
قسما بحبك لم أكن لأحابى

عدوك من (سقط المتاع) وأنت من
لب الحياة لدى أولى الألباب

عميت نفوس عن جمالك واهتدت
فيك نفوس رغم كل ضباب

المترفون فى النعيم قلوبهم
موتى، فكيف تقوم للآداب؟

عبدوا المنافع كاسبين ولو دروا
لرأوك أكرم مكسب وطلاب

يا نفحة الروح العليا مزقى
ما بين أهل سما وأهل تراب

يعيش كل مـــوائم لموائم
كتزاوج الأنساب بالأنســاب
جربت عيشتى مع عداك مجاملا
فوجدتنى فيهم من الأعراب
فبعدت عنهم واصطفيت لوحدتى
غاباً ، فـكنت أنيستى فى الغاب
حسب(المليحة)أن تـكون كما أرى
سفرين . . سفر طبيعة وكتاب
آوى إلى الظل الوريف فينحنى
من لطفـه وأميد من إعجـابى

فهرس

الاهداء ٣
من آهات القصور ٥
فى دنيا الخيال ١٤
أفضيلة أم رذيلة ١٩
من صور الخيانة ٢٣
سلوا المعري ٣١
صوت حواء ٣٤
فتاة الانسانية ٣٦
وثبة الشباب الجبارة ٤٣
ذكي محروم . . وغبي متخوم ٤٦
وقفة على قبر المعرى ٥٠
دمعة على قبر المعري ٥٥
اليك أنت يا أستاذي ٥٧
عتاب ٥٩
أيها القمر ٦٢
مناجاة ٦٤
في سكون الليل ٦٩
نجوم لبنان ٧٣
مجدك خلفك ٧٦
وأخيراً .. خاب الأمل ... ٨٣
ليت القدر يعف حين يقسو ٨٧
قلبي على طاولة التشريح ... ٩٤
تري من هي . ؟ ١٠٢
قلب ينفجر ١٠٧
عندليب الشرق ١١٨
الجارية الحسناء ١٢٠
القدر ١٢٤
من مآسي البشرية ١٣٠
من سره خلق ساءته أخلاق ١٣٥
قلبي وعقلى ١٤٦
أمى ١٥٣
وداعاً ١٥٩

شركة فن الطباعة
لصاحبها سليم شحرورى
شارع الأزهار رقم ١ شبرا مصر
تليفون ٥٨١٦٩ صندوق البريد ٤ بشبرا

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 081693457